عنترة بن شدّاد

٩

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٩

تأليف

حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

فرح بنو عبس بقدوم عنترة ، وأمر قيس أن ينادى فيهم : ها قد جاءكم بقدوم عنترة النصر والفتح المبين ، فهبوا لمعونة من جاء يكشف عنكم بسيفه الكرب المهين ، وما لبثوا غير ساعة من نهار حتى ماجت بهم وبأعدائهم الأرض ، واسودت بالغبار نواحيها ، ولمعت السيوف والأسنة صاعدة وهابطة ، وعنترة بين الأعداء ، منجل للقضاء ، لا يبقى ولا يذر ، وفرسانه عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، يحصدون الأرواح حصداً ، ويأتون بكل عجيب وغريب ، كأنهم عفاريت من الجن ، حتى جزع الأعداء من لقائهم ، وفروا إلى مكان بعيد فى الصحراء يجمعون شتاتهم ، وكذلك نجى عنترة الأسرى ، فأمر بنى عبس أن يفك كل قريبه ، ويطلق سراحه ، وكان من بينهم عمارة الذى فرح بنجاته على يد عنترة ، بعد أن كان الموت أقرب إليه من حبل الوريد . وجاء الليل فأوى عنترة إلى بنى عبس وفرحوا به ، والتفوا حوله ، وصاروا يلقون إليه معاذيرهم ، ويرجون صفحه ومغفرته ، ويرفعون ذكره ، ويقرون له بالسيادة عليهم ، فشكر لهم عنترة هذه الحفاوة ، وأعلن أنه لهم ، ولو أكلوا لحمه .

ولما اطمأنوا فى مجالسهم تفقد عنترة عروة فلم يجده ، فأكله القلق عليه ،

وسأل عنه فقال أبوه شداد : رأيته يقتتل هو ودريد، ولا أدرى ما تم بينهما .

فقال عنترة : لئن فعل دريد به سوءاً فإنى مهلكه وقومه . وبات وصدره فى حرج وضيق من أجل عروة .

وفى الصباح قال عنترة : لا يقطع دابر هؤلاء القوم إلا أن يقتل دريد بن الصمة ، ولهذا فإنى مبارزه ، ليقضى على يدى نحبه . ثم جال فى الميدان قائلا : أين دريد بن الصمة ؟ أين دريد بن الصمة ؟ فنهض دريد إلى الميدان قائلا : ويلك أيها العبد المنبوذ ! ! لقد دعوك إلى القتال بعد أن طردوك ، فبدت فيك صفة العبودية مطروداً ومدعوا .

فقال عنترة : ذلك وقت قتال ، لا وقت جدال ، ولا عليك إن طردت أو دعيت ، فهم قومى ، إن أكلوا الحمى وفرت لحومهم ، وإن هدموا مجدى بنيت مجدهم ؛ وما عليك الآن إلا نفسك ، ومهما تأخذ حذرك من سيفى فهو شارب من دمك . ثم هجم كل منهما على صاحبه هجوماً خيل إلى الرائين أن الموت سل على رأسيهما حسامه ، واستمرت المبارزة حامية الوطيس، حتى استوت الشمس فى كبد السماء،وكان دريد قد أحس تعباً ونصباً ، ورأى شبح الهزيمة مقبلا عليه ، فقال لعنترة : على رسلك أيها الفارس ، فما عرفت بالكذب فى يومى ولا فى أمسى ، وقد ضعفت أمامك قوتى ، وقلت حيلتى ، وأخشى أن أقع فى يدك أسيراً ، فيلحقنى بذلك عار لا طاقة لى باحتماله ، ولى من مروءتك

ما يساعدنى على حفظ كرامتى ، وذلك أن تستجيب لما أعرضه عليك ، بل أن أكون لك خير عدة ، فى كل نائبة وشدة ، ولك عندى بعد ذلك من المال ما يناسب قدرك ، وعلو شأنك ، وما أريد منك إلا أن نقتتل ساعة ، ثم تنصرف عن مبا رزتى ، معلناً أنك أنت الذى رجوت منى أن أقيلك ، ثم تجعل قيساً يأتينى ، ويسألنى أن أنصرف عنكم بجنودى فتكون عودتى إلى ديارى فى الحقيقة والواقع عودة المهزوم الخاسر ، وفى الشائع بين العرب عودة المنتصر الغافر ، وسترى بعد ذلك منى صلة بالمال غير منقطعة ، وثناء مستطابا لك منى فى كل جالسة أو مناسبة ، ولا يدخلن فى روعك أنى أخدعك بهذا القول ، فإنى على استعداد أن أسلم نفسى إليك أسيراً ، وسيأتى بعد ذلك صهرى سبيع بن الحارث فيفتدينى ، ولكنك تخسر صداقة مثلى ، فتندم حين لا ينفع الندم ، ويحق عليك المثل : « الصيف ضيعت اللبن » .

غر عنترة هذا القول ، ورغب فى صداقة هذا الفارس الجبار ، الذى له نفوذ ممدود على قبائل العرب ، فقال : ما دمت قد طلبت منى الإقالة ، فإن عنترة قد أقالك ، وقد كان فى وسعى أن أجعل لحمك طعاماً لطير السماء ، ووحش الصحراء ؛ ولكنى أردت أن أذيقك تعب المبارزة ، وأعطيك فرصة من الوقت تبدى فيها ما عندك ، حتى يضيع صوابك ، قبل أن أستل روحك من جسمك .

وهم عنترة أن ينزل إلى دريد يحتضنه ويقبل رأسه ، ولكنه رأى خالداً أخا دريد قد أقبل فى جنده ، يبغون قتل عنترة وإنقاذ دريد من يده ، فقال : الآن حصحص الحق وبان كذبك ، وضرب فرسه بسيفه فقطع عنقه ، ووقع دريد على الأرض مشغولا بنفسه ، والتفت عنترة إلى خالد وجنده ، فصاح فيهم صيحة ملأت قلوبهم رعباً ، وجرد فيهم سيفه فجعل يحصدهم حصداً ، ورأى قيس ذلك فأقبل فى جنده وأصحاب عنترة ، واشتبك الفريقان، ودارت رحى الحرب تطحن الأنفس طحناً .

وما كان دريد فيما عرضه كاذباً ولا خادعاً، ولكن القدر فجأه بهجوم خالد فأفسد عليه صدقه ، وضيع فرصة النجاة والسلم الدائم من يده .

وكان خالد معذوراً فى هجومه ، إذ أن دريداً كان قد اتفق هو وأخوه على مثل هذا الهجوم إن طالت مبارزته ، ولم يمكنه التغلب على خصمه ، ثم تحدث إليه ، فكان هذا الحديث بمثابة رمز بينهما ، إلى أنه فى ضيق وحرج ، ويخشى أن يقتل أو يؤسر ، فكان ما كان من هذا الهجوم واستعار نار الحرب بعد أن كادت تضع أوزارها .

ولما وقع دريد على الأرض أسرع إليه شيبوب فحبسه فى قيود الأسر، وساقه إلى قومه ، ثم استمرت الحرب بقية النهار ، أظهر فيها بنو عبس من القسوة والشدة ما جعل القبائل القريبة تلوذ بالفرار ، وهم لقيط بن زرارة أن يهرب معهم فأدركه مقرى الوحوش ، وضربه بزجاج

رمحه . فعوق فراره ، وقاده إلى مقر أسره .

وقد هم جنود خالد أن يفروا ، ولكنه ثبتهم قائلا : سيأتينا سبيع بن الحارث وجنده ، فيكون لنا أعظم قوة ، وإن أخى دريداً لا يفوته فى أسره أن يصالح بنى عبس ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك فسبل الحرب أمامنا مفتوحة . فلننتظر بقية هذا اليوم حتى نرى ما سيكون .

وأما بنو سليم وبنو مشاجع فإنهم انتظروا طامعين أن يفتدوا لقيط ابن زرارة بعروة بن الورد الذى أخذوه أسيراً .

ورجع بنو عبس إلى ديارهم فرحين ، شاكرين لعنترة هذا الفضل العظيم ، ولكن عنترة لا يزال فى شغل بعروة ، فسأل دريداً عنه ، فأخبره أنه أسير لدى لقيط بن زرارة ، ونجاته من أسره هينة ، ما دمت أنا أسيراً فى يدك ، وأرى أن تتخذنى إليك خير صديق لأجعل بينى وبينكم سلاماً دائماً ، وأسرع بهؤلاء الجنود إلى الديار ، قبل أن يأتيكم سبيع ابن الحارث ، الذى لا يقبل صلحاً ، ولا يركن فى القتال إلى هوادة ، ولولا أن قلبى قد ملأه حبك ، ما ألححت فى طلب الصلح غير مرة .

فقال عنترة : أبعد أن خدعتنى بحديثك حتى هجم علينا خالد أخوك تريدنى على أن أصدقك أو أطمئن إليك ؟ ! ! وأما سبيع بن الحارث فلا يهمنى أمره ، وغداً ترى ما سأفعله به ، إن جاءنا كما تقول. فإما قدته أسيراً مهاناً، وإما قتلته قتلة مخزية ؛ وإن هو لم يأت إلينا ذهبت

أنا إليه فى بنى حِمْيَر ، فصببت عليه الفناء صبًّا ؛ فأقسم دريد له أن هجوم أخيه لم يكن إلا قضاء وقدراً .

٢

وبينما هما فى حديثهما هذا أقبل جرير على أخيه عنترة ، وعلى وجهه أمارات الفزع والكآبة ، ففطن عنترة لحاله وسأله : ما وراءك يا جرير مما له آثار تبدو على وجهه ؟ !

فقال جرير : يا بن أمى ، تركت عبلة وسائر النساء على شفا الأسر والمذلة ، فقال : قل ما عندك وأوجز ، فقال جرير : دهمنا زيد الخيل فى جماعة من بنى نبهان ، متدفقين متدافعين ، كأنهم أمواج بحر زاخر ، فأنزلوا بنا وببنى عامر البلاء ، ونهبوا الأموال ، وساقوا الخيل والجمال ، وجرح ملاعب الأسنة جرحاً بليغاً ، ولولا كبشة أم عامر بن الطفيل لذهبت ريحنا .

فنهض عنترة من فوره إلى قيس وقال : لقد نفسنا عنكم كربتكم ، وأصبحتم ظاهرين على أعدائكم ، فإن جاءكم سبيع بن الحارث فلا تلينوا له قناتكم ، وإن عز عليكم قهره ، فاطلبوا من دريد الصلح معه ، أما أنا فقد جاءنى نبأ إغارة زيد الخيل فى جماعة من بنى نبهان على النساء ، ومن الواجب على أن أذهب إليهن قبل أن يُسقن بعصا الأسر إلى ديار الأعداء .

وسار عنترة فى عشرة من فرسان بنى قراد ، ومعه عامر بن الطفيل وشداد أبوه ، فوجدوا بنى عامر قد أحيط بهم ، فاندفق عنترة ومن معه اندفاق السيل ، فصدعوا صفوف الأعداء ، وزلزلوا ثباتهم ، ونقصوهم من أطرافهم ؛ وأحس زيد الخيل فى آخر النهار أن الهزيمة فى جانبه ، فأرجئ القتال إلى الصباح وعاد كل إلى محلته ، أما عنترة فقد تلقاه بنو عامر بكل ثناء وشكر ، وصفت له نفوسهم من كل حقد وحسد ، وأعلنوا أنهم مدينون له بالحياة ، وأما زيد الخيل فإنه انقلب إلى أهله فى غضب وعجب ، ولما جلس إلى أصحابه قال : لولا ذلك العبد الأسود ، وسيفه الباتر ، لقضينا اليوم على بنى عامر .

فقال المهلهل : يا زيد الخيل ! لا يسخر قوم من قوم ، ولا ينبغى أن تفترى على الناس عيوباً ، واعلم أنه ما ولدت أنثى مثل عنترة ، ولقد رأيت منه فى هجومى عليه ما لم أره من ضوارى السباع .

فقال زيد : ومن هذا العبد الذى أدهشك قتاله ؟ ! ستراني فى الصباح قد جعلته بسيفى هذا أشلاء ممزقة ، وإن الصبح لقريب . ثم انفض المجلس إلى النوم والراحة .

وكان شيبوب قد جرح فى هذا الهجوم ، فبات عنترة فى هم من أجله ، ولما جاء الصباح أحب عنترة أن يطمئن عليه قبل أن يذهب إلى المعركة ، فدخل عليه وسأله عن حاله فقال : لقد رأيت فى المنام ما جعلنى

أخشى مغبة هذا الجرح ؛ فقال عنترة : وماذا رأيت ؟

فقال شيبوب : رأيتني عند البيت الحرام ، قائماً إلى الأصنام ، أطلب العافية من الآلام ، فقال الصنم هبل : أبشر بالبرء من جرحك عن قريب ، وبانتصار على بنى نبهان صباحاً ، وسيكون لك ولأخيك عنترة حديث عجيب ، ولكن أخبر أخاك أن يحسن إلى زيد الخيل وأبيه إذا ظفر بهما ، فهما اللذان سينجيانكما من يد رجل سيظهر فيهم يسمى أسداً ، وسيموتان بعد هذا فى لحظة واحدة ، وقد قرب موعد وجوده ؛ وسيظهر فى أثره رجل طاهر العرق ، برىء النسب ، يحطم الأصنام ، وينشر الهدى بين الأنام ، ثم بكى شيبوب وقال : يا بن أمى ، أخشى أن يكون قد اقترب أجلنا ، وأن هذا الصنم قد استحيا أن يسلك فى خبره سبيل التصريح ، فعدل إلى الرمز والتلويح ، لأنى أود من صميم فؤادى أن يمتد بنا الأجل ، حتى ندرك هذا الرجل ، ونسقى من هديه ، ونكون خير عون له .

فقال عنترة : أما هذا الرجل فقد تواترت الأخبار واتفقت التكهنات على ظهوره ، وأما ذلك العدو فقد غمّ علىّ أمره ؛ وأما حلمك هذا فقد نال من نفسى ، وجعلنى أوثر الأسر على أن أقتل أحداً ؛ فاكتم ما رأيت فى منامك ، حتى ننتهى من حرب بنى نبهان ، ثم نقصه على بعض الكهان ، لنرى تأويل رؤياك .

ثم تركه إلى الميدان ، وجال فيه يقتل ويأسر ، فكان عدد الأسرى مائتين . وكان كلما هم زيد الخيل بمبارزته ، منعه أبوه المهلهل خوفاً عليه . حتى دفعه غيظه إلى عصيان أبيه ، وركب جواده إلى الميدان طالباً عنترة ، فاستقبله بقلب كأنه الحجارة أو أشد قسوة ، وجعله يجول به هنا وهناك ، وهو لا يود قتله على الرغم من تمكنه منه ، مؤثراً أن يأسره من أجل رؤيا أخيه شيبوب ، حتى مالت الشمس للغروب ، فهجم عليه هجمة ، كان زيد على إثرها فى قبضة يده ، فسلمه إلى أخيه جرير . فحزن أبوه وجنده لأسر فارسهم وحاميهم زيد الخيل .

واجتمع عنترة ببنى عامر ليلا ، ففرحوا به ، إذ نصرهم على أعدائهم الذين لا يحصون عدا ، وقالوا له : لن نرى ضحوة الغد من هؤلاء الأعداء أحداً ، بعد أسر حاميهم ، وفتك سيفك بهم . فقال عنترة : هؤلاء الأعداء كثيرون ، وفيما يبدو لى لن ينفضوا من حولكم حتى يعمل فيهم سيفى يومين أو ثلاثة ، وإنى الآن أخشى على قومى بنى عبس أن يكون قد جاءهم سبيع بن الحارث فأرهقهم من أمرهم عسرا ؛ وأرى أن تذهبوا إلى زيد الخيل ومن معه من الأسرى وتقولوا لهم : قد جئناكم بما فيه الخير لكم ، فإن رأيتم فيهم رغبة فى الاستماع لكم فقولوا : إن هذا العبد الأسود ضيف عندنا ، وإن أقام فينا يوماً فلن يقيم غيره ؛ وقد أصر على أن يقتلكم جميعكم فى صباح الغد ، ولكننا لا نود ذلك ولا نرغب فيه ، لأنكم

فى أرضنا ، ولا نحب أن يكون دم بينكم وبيننا ، فإذا رأيتم مصلحتنا ، وأقسمتم أن ترحلوا بجنودكم وفرسانكم عنا أخلينا سبيلكم هذه الليلة ، واعلموا أن هذا خير لنا ولكم ودفع للخزى والعار عنكم ، فهو عبد زنيم لا حسب له ولا نسب ، وقتله إياكم سبة لكم ولقبائلكم إلى الأبد . ففرح بنو عامر بهذا الذى عرضه عليهم عنترة ، وفى ظلمة الليل ذهب عامر ابن الطفيل وملاعب الأسنة ، والأحوص بن جعفر ، وبعض فرسانهم إلى الأسرى وفيهم زيد الخيل ، وألقى ملاعب الأسنة على أسماعهم ما قاله عنترة فى أسلوب مؤثر ارتعدت له أبدانهم .

فقال زيد الخيل : لقد علمتم يا بنى عامر أننا ما كنا نحمل لكم شرًّا ، ولكن عامر بن الطفيل وأسره زوجى ونهبه خيولنا كل أولئك كان سبب ما بيننا الآن من حرب ، وما جئنا إليكم عن حقد وكراهية ، ولكننا جئنا لنخلص أسرانا ونسترد أموالنا ، وقد ملكتمونا الآن فالحكم لكم ، وقد رضينا أن تخلوا سبيلنا ، على أن نرحل عنكم بجنودنا ، ونترك ما أخذتم من أموالنا فدية لنا .

وبينما هم يتحدثون فى ذلك دخل عليهم جرير أخو عنترة يبكى وفى يده حبل طويل ، فقالوا له : ما بك يا جرير ؟ ! فقال : إن أخى شيبوبا الآن فى ساعة الاحتضار ، وبين يديه أخى عنترة يبكى ويسأله عن شىء يقدمه له قبل رحيله من الدنيا ، فقال : لا أريد يا أخى إلا

عشرة من أعز فرسان بنى نبهان تذبحهم بين يدى ، لأنى جرحت تحت أعلامهم وفى حربهم ، فنادانى أخى عنترة ، وأمرنى أن أحضر بين يديه الآن زيد الخيل وبقية العشرة ، ليذبحهم بين يدى أخيه ، وإلا أباد الأسرى جميعهم . وكان هذا التدبير من شيبوب ، لأنه لما عوفى من جرحه ، وبلغه ما دبر عنترة ، أراد أن يعزز تدبيره ، فأرسل أخاه جريراً بتلك الرسالة ، حتى يذل بها زيد الخيل ، ويجعله خاضعاً لما يعرضه عليه بنو عامر .

أيقن بنو عامر أن هذه الرسالة صحيحة ، إلا عامر بن الطفيل ، فإن كثرة مصاحبته لعنترة وشيبوب جعلته يعتقد أنها لتعزيز ما دبر لا غير ، فقال : أود أن نرجئ تنفيذ ما جئت به حتى أذهب إلى عنترة ، وأسأله أن يرجع عن طلب شيبوب هذا رغبة فى دوام الود بيننا وبين زيد الخيل وقومه ، فقال زيد الخيل وقد ملكه الخوف على نفسه : يا عامر ، لقد حلفت برب زمزم والحطيم ألا أجرد فى وجهه سيفاً ما دمت حيًّا ، إن هو أخلى سبيلنا ، وأرجعنا إلى ديارنا ، وإن وجدته مصرًّا على ذبح العشرة ، فارج منه أن يجعلهم من الفرسان المجهولين ، وعلينا نحن أن نحمل إليه فدية رءوسنا وإن بلغت وزنها ذهبا .

وكان فى الأسرى رجل يسمى المدقوق ، جاء لطلب الكسب والرزق فقال : يا زيد الخيل ، إن عنترة لا يقبل فى أخيه إلا فارساً ذا أصل عريق ، ونسب كريم ، فلا تحاول أن تدفع الموت عن نفسك بغيرك .

فضحك عامر بن الطفيل وأيقن أن القوم قد فزعوا مما سمعوا ، وأن التدبير أصاب هدفه ، فقال : اتركوا أمركم فى يدى ، فلا آتيكم من عند عنترة إلا بما تشتهون ، ثم أخذ جريراً وذهب إلى عنترة ، وأطلعه على ما جرى ، وعلم منه أنه تدبير شيبوب لحملهم على الرضا ، وبعد ساعة حضر إليهم ، فقال للأخوص بن جعفر : عليك بالأسرى فخذ عليهم المواثيق والأيمان ، وأطلق سراحهم قبل أن يشرق عليهم صباح النهار ، لأن عنترة إن مات أخوه قبل الصباح فلن يبقى من هؤلاء الأسرى أحداً إلا ذبحه ، فقال زيد الخيل بعد أن أقسم أعظم الأيمان : لن تجدوا حول دياركم نافخ نار قبل أن يطلع النهار ، ولن نشهر فى وجوهكم سيفاً ما دمنا على ظهر هذه الأرض أحياء ، ثم أطلقوهم من قيودهم ، وما جاء النهار حتى كانت الأرض منهم خلاء ، وفروا فى الظلام إلى الديار .

ركب عنترة جواده ، وكشف لأبيه عن دخيلة نفسه فقال : لقد خشيت يا أبت أن يكون ذو الخمار قد انتهز فرصة غيبتنا فأغار على نسائنا فى مأمنهن من المنازل ، ولهذا فإنى شديد الرغبة فى أن نعجل بالعودة وإذا كان الأمر كما خشيت فقد خلص من الأسر دريد بن الصمة .

فقال أبوه : ليس فى الأمر إلا أن ننقلب إلى أهلنا مسرعين .

رجع عنترة ومعه فرسانه وعامر بن الطفيل وملاعب الأسنة وجنودهما ، أما الأخوص فقد رده عنترة على الرغم من تشبثه بصحبته ، والرغبة فى

ألا يفارقه حتى يطمئن على أهله وقومه ، وما أشرفوا على الديار حتى رأوها غارقة فى ظلام من الغبار ، فقال عنترة : ذلك ما توقعته . فشمروا عن سواعد الكفاح والبطولة ، للقضاء على سبيع بن الحارث وفئته ، فشهروا سيوفهم ، واستحثوا خيلهم ، وصاحوا صيحات النجدة والمعونة ، وعرفهم الهاربون من بنى عبس فرجعوا إلى القتال ، وأيقنوا بالنصر العاجل حينما سمعوا صيحات عنترة تدوى كالرعد ، وتمحو من قلوب الأعداء كل صبر وجلد ، فخاضوا المعركة مستبسلين ، وعنترة فيهم يهد فى الأعداء هدًّا ، ويحصدهم بسيفه حصداً ، وكان له مع ذى الخمار جولات تنخلع لها قلوب الأبطال الصناديد ، وكان مقرى الوحوش يشد أزر بنى عبس فى غيبة عنترة ، وكذلك الكليم فارس بنى كريم ، فإنه رأى الجمانة بنت قيس فى جماعة من النساء ، وهى ذاهبة إلى بنى عامر لتصالح معهن عنترة وتسترضيه ، فرغب فى الزواج منها ، ولهذا قاتل هو وفرسانه فى صفوف بنى عبس طمعاً فى انتصاره ، وأن يكون هذا من وسائل الحصول على رغبته ، وأن يرضى به قيس زوجاً لابنته ، إذا ما خطبها منه ، ولكنه لم يعلم ما كتب له ، فقد كان غارقاً فى أشعة براقة من أمله ، ولكن القدر كان يسوقه إلى حتفه ، فقد طعنه سبيع بن الحارث طعنة نجلاء ، سقاه بها كأس الفناء ، وانطوت صفحة وجوده بين الأحياء ، وكان ذلك قبل قدوم عنترة ، الذى وجد قومه فى هم وفزع ، وحالة تنذر بالهلاك والعطب .

٣

كان القتال حامياً، وكان الكفاح بالغاً أشده، فانفرد ملاعب الأسنة بدريد بن الصمة، وعامر بن الطفيل بلقيط بن زرارة، وعنترة بذى الحمار، ومكن هذا الانفراد بنى عبس من لم الشتات والإلقاء بأنفسهم فى المعمعة بقلوب لا ترهب الموت ولا تخشاه، ونفوس موقنة بالنصر والظهور على الأعداء.

وكان بين هؤلاء الأبطال الستة من ألوان القتال والجلاد ما يزيغ الأبصار ويذهل الألباب؛ فهذا عنترة قد أرهق سبيع بن الحارث حتى أعياه وأعجزه، وكبا به جواده فأعجله بالأسر والوثاق؛ ورأى لقيط ابن زرارة ما حل بسبيع فألوى لجواده العنان وانفلت من بين يدى خصمه هرباً، فانحاز عامر بن الطفيل إلى ملاعب الأسنة وعاونه فأسرا دريد بن الصمة وأوثقاه، ورأى الأعداء ألا طاقة لهم على القتال بعد فرار لقيط وأسر سبيع ودريد، فتركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وفروا من الميدان هاربين، وكان ما تركوه غنيمة لبنى عبس الذين فرحوا بنصرهم واغتبطوا بما غنموا.

ودخل ملاعب الأسنة على قيس فى خيمته، ومعه جماعة من بنى عامر قومه، فقال له: أيها الملك، لقد جمع بين قومى وقومك الإخاء والألفة، وأصبح أعداؤك أعداءنا، فإذا جمعنا مكان واحد كان لنا من هذا الاجتماع قوة لا تدع لعدو مطمعاً فينا، وأرى أن ترحل أنت وقومك وتقيموا بجوارنا لنعيش معاً فى أمن وسلامة. فاطمأن قيس لرأى ملاعب الأسنة، وارتحل هو وقومه ونزلوا بجوار بنى عامر، وعاشوا جميعاً متآلفين متزاورين.

* * *

اجتمع بنو عبس وعامر يتشاورون وينظرون فيما يفعلونه بدريد وسبيع؛ فرأى بنو عبس أن يطفئوا نيران الغيظ المستعرة فى قلوبهم منهما بقتلهما، ولكن الأحوص بن جعفر وسادات بنى عامر رأوا أن يمنوا عليهما بعتقهما وإطلاقهما، حتى يستريحوا من عداء بنى حمير وهوازن وجشم وحلفائهم، وبينما هم يتشاورون بان لهم من ناحية العراق غبار، فشخصت إليه أبصارهم حتى انكشف عن المتجردة أخت الملك قيس، وكانت قد حضرت زائرة فى موكب حافل بالجوارى والغلمان ومظاهر الترف والنعيم، وكان معها عمرو بن هند. فاستقبلوا هذا الموكب بما يليق به من ضروب الترحيب والتعظيم، وسألوا عمراً عن أخيه النعمان فقال: إنه على أحسن ما تحبون ويرضى. وقد أبدت له المتجردة شوقها إلى زيارتكم فأذن لها راضياً. وبعثنى فى ركابها إليكم، وهو يمنحكم السلام ويرجو لكم العافية؛ وجعلت

المتجردة تذكر لأخيها ما تستمتع به فى بيت زوجها من الراحة والنعيم حتى أثلج فؤاده ؛ ثم سألته عن سبب نزوحهم من ديارهم ونزولهم بجوار بنى عامر فقال أخوها قيس : سيوفنا أوطاننا حيثما نزلنا ، ولكن نفوسنا هاج بها الحنين إلى منازلنا ومساقط رءوسنا ، وما استقر بنا مقام من يوم أن قتلنا أولاد بدر . فقالت : سأحمل زوجى النعمان على أن يصلح بينكم وبين حصن بن حذيفة وقومه بنى فزارة لتعودوا إلى منازلكم آمنين .

فقال : ذلك ما أرتضيه ، وهو أقوى شاهد على أننا نحبه ونطيعه ، لأننا قادرون على أن نذل بنى فزارة ونرغم أنفهم بل نقطع دابرهم .

كان عمرو بن هند أخو النعمان قد نصبت له السرادقات الحريرية على المناهل والعيون ، فلما فرغ قيس وأخته من حديثهما ذهب إليه هو وإخوته وعنترة وطائفة من بنى عامر ، فأجلسهم من حوله ، وأراد عنترة أن يجلس فى ذيل المجلس فقام إليه عمرو وأجلسه بينهم جلسة السيد الكريم ثم قال : لقد جئتكم هذه المرة وسيوفكم مستقرة فى أغمادها والسلام يجرى بينكم رخاؤه ؛ فقال قيس : ما استقرت لنا سيوف ولا سكنت للحرب فينا ريح . وحكى له ما حدث بينهم وبين دريد وسبيع من قتال عنيف انتهى بأسرهما وقال : وقد عولنا على قتلهما ولكن قدومك شغلنا عنهما .

فقال عمرو : بئس ما عولتم عليه ، فما كنتم تكسبون منه إلا الفناء ، فإن شأن دريد فى العرب لا يقل عن شأن أخى النعمان ، وإن أنتم

قتلتموه أو أبقيتموه أسيراً أحيط بكم وتخطفتكم سيوف أشياعه من كل جانب ، وأرى أن تحضروه لأبين له سوء ما فعل ، وأصلح بينكم وبينه ، ولتمنوا عليه بإطلاقه ؛ فأمر الملك شيبوباً أن يحضر دريداً وصهره ذا الحمار ، فلما حضرا قال عمرو : كيف تجهل يا دريد وتشعل نار فتنة حمقاء لا يوقدها إلا غرور الفتوة وجهل الحداثة وأنت شيخ كبير ؟ ! .

فقال دريد : ما خرجت عن مألوف العرب ، فقد قتل بنو عبس أخى عبد الله وتركونى طريحاً بين القتلى عند منعرج اللوى ؛ ولما قدرت لى السلامة قمت بما فعلت لأمحو العار عنى ، فما جنيت إلا قتل رجالى ونهب أموالى ، ووقوعى أنا وصهرى فى ذل الأسر كما ترى !

فقال عمرو : ولكنك تعلم أن منزلة أخى النعمان منوطة بإسكان الفتن بين العرب وإقرار السلام والأمن فيهم ، فكيف تقلق هذه المنزلة وتضعف من شأنها ؟ ! إنك تعلم محبة أخى لبنى عبس ، وأنه يغضب لغضبهم ، فكيف تزعج راحته بقتالهم ؟ ! ولماذا لا تكون عوناً لأخى على إزالة الأحقاد ومحو الفتن وإقرار الأمن والسلام ؟ ! أرى أن تنسوا الماضى ولا يكون بينكم وبين بنى عبس إلا الألفة والوئام .

فقال دريد : رأيك مطاع . وتقدم إلى قيس وعانقه وصافحه ، وكذلك فعل مع عنترة ؛ أما ذو الحمار فإنه قال : لا أصالح عنترة حتى أبارزه بين أيديكم ، ويقر المغلوب منا لصاحبه بالتفوق عليه ، لأنى

ما وقعت فى أسره إلا لأن جوادى نفدت قوته فكبا بى وهوى على الأرض بغتة فأعجلنى عنترة بوثاقه .

فقال عمرو : ما أردت بموقفى هذا إلا الإصلاح والوئام وأخشى أن يكون فيما تدعو إليه من المبارزة إثارة للضغائن وقيامة للفتنة .

فقال ذو الخمار : لو اطلعت على ما أعلمه من أمر نفسى لوجدتنى لا أبتغى بما أطلب شرًّا وسيبين ذلك فيما تسمع : لقد كنت عزمت على أن أحج بيت الله الحرام وأعلق قصيدة لى على الكعبة لينالنى فخرها وامتداد حياتى بها ، ولكن عنترة أسرنى فعوقنى عن بلوغ ما أردت ، وألحق بى عاراً لا يمحوه إلا سيفى . وما طلبت المبارزة إلا من أجل ذلك ، فالأمر بينى وبين عنترة ، ولن يجاوزنا إلى غيرنا .

فنهض عنترة قائلاً : أما شجاعتك فلا مجال للخوض فيها ، ولقد وزنتك العرب بسبعة آلاف فارس من فرسانها ، وأما المبارزة فموعدنا بكرة الغد على أن تكون رمحى منزوعة السنان ، وأن أكون عارياً من الدروع وأن يكون دمى حلالاً لك ، وأن يكون دمك حراماً علىّ . فشخصت إلى عنترة أبصار الجالسين عجباً من ثقته بنفسه التى جعلته يختار المبارزة على هذا الوضع العجيب . وأثار هذا العجب غيرة ذى الخمار فقال : يا سادة العرب ، لن أبارزه إلا إذا كان فى عدة حربه وسلاحه ، وليجعل كل منا فى طرف السنان خرقة مبللة بماء الزعفران ، لتترك كل إصابة علامة فى موضعها من

جسم الفارس منا ، وليركب عنترة جواداً غير جواده الأبجر ، لأنكم تعلمون أن جواد الفارس منا يفهم من صاحبه فى مواقف الطعان ما لا يفهمه الجواد الغريب ، وهو أسلس قياداً وأبصر بمواقع الإشارة من غيره ، وحينئذ تقوم المبارزة على أساس عادل ، فمن كثرت علامات الإصابة فى جسمه كان المغلوب لصاحبه .

فقال عنترة : لك ما اخترت وموعدنا صباح الغد .

فقال عمرو : وستكون المبارزة على الغدير العظيم . ورجع المجلس إلى ما كان عليه من شرب الأقداح ومطارحة الطرف والنوادر ، وأفاض عليهم دريد من ذلك شيئاً كثيراً ، ثم انفرط عقدهم وذهبوا إلى مضاجعهم .

وفى الصباح أخذ عمرو بن هند مجلسه من سرادقه ، وتوافد عليه سادات العرب ، ثم أقبل عنترة على فرس متينة العضلات ، ممسكاً رمحاً من غير سنان ، مرتدياً ثوباً قصير الأكمام ، عارى الرأس حافى القدمين ، فأسلم فرسه وعدته إلى أخيه ثم دخل السرادق وحيا الجالسين ، ثم سأل عن خصمه فقالوا : ما هذا يا عنترة ؟ ! ألا تخاف على نفسك من ذى الخمار ؟ !

فقال : وما حفلت بقوله ، وسأجعله مثلاً وعبرة .

وحضر إذ ذاك دريد بن الصمة فأجلسه عمرو بجانبه ، وسأله عن صاحبه فقال : يا سادة العرب ، إن الأمور تجرى فى مجاريها كما أريد لها وقُدّر ، لا كما أراد الإنسان ودبر ، وقد أردت أن أتخذ عنترة صاحباً

وسنداً ، وبنى عبس حمى وذخراً .

فقال عمرو : لعل شيئاً حملك على هذه الحال ، فقال : إن السعادة لا تفارق من قُدرت له ، فقد أصبح ذو الخمار رهين فراشه ، تعركه الحمى الصالبة .

فقال عمرو : ما كان هذا حظ عنترة وحده ، ولكنه حظنا جميعاً فقد رفع عنا هذا المرض شر الكفاح الذى كنا نخشاه ، فإن المبارزة ما كانت تنتهى إلا بشر عظيم لا ندرى له غاية . ثم قضوا معظم النهار فى الشرب والمنادمة ، وبعد ذلك وزع عمرو ما أحضره من الخلع والهدايا .

وبعد عشرة أيام من قدوم عمرو استأذن دريد فى الرواح ، متعللاً بأن أخاه إن استبطأ عودته استنفر العرب وحضر إليه ، فاستحسن عمرو رأيه وأذن له فى الرحيل ، وودعه قيس بن زهير أكرم وداع ، بعد أن رد إليه جميع ما كان قد أخذه منه من مال ونعم ، وبعد عشرة أيام أخر استأذن عمرو فى العودة بالمتجردة ، لأن أخاه لا يطيق صبراً على فراقها ، ولأن عمراً جاوز المدة التى حددها له أخوه النعمان ، إذ لبث فى بنى عبس ضعفها .

جهز قيس أخته للرحيل إلى زوجها ، ولبث فى ذلك ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع بدأت المسير ، وسار معها جميع من فى الحى من الرجال ، ولم يبق فيه غير النساء ، ومكثوا معها سائرين ثلاثة أيام ، ثم ردهم عمرو بن

هند بعد أن أقسم عليهم بأغلظ الأيمان ، فرجعوا وأقاموا فى منازلهم هانئين ، وكان فرحهم عظيما بشفاء مقرى الوحوش من جروحه .

٤

كان عنترة يخرج إلى المروج كثيراً ومعه عامر بن الطفيل وجماعة من الفرسان ، يقضون فيها أكثر أوقاتهم فى الشرب والحديث ، وذات مرة جرى بينهم كلام فى ذى الخمار ، فقال عنترة : لقد ترك هذا الفارس فى نفسى عزماً على شىء لا بد أن أفعله .

فقالوا : وما ذاك يا عنترة ؟

فقال : أن أعلق على الكعبة قصيدة تبقى على الأبد فخراً لبنى عبس.

فقالوا : كأنك قد أصررت على هلاكنا وبوارنا ، إن ذلك الأمر لا يقدر عليه النعمان ، ولا كسرى أنو شروان .

فقال عنترة : إن شاء ربى فسأحقق ما أنتم تبطلون ، وسترونه غداً بأعينكم وتلمسونه بأيديكم . فظنه الصحب فى نشوة سكره ، وتركوه مسترسلاً فيما تخيل وعزم .

وأقبل عليهم حينئذ عروة بن الورد ، فسأله عنترة : أين كنت فى غيبتك يا بن الكرام ؟

فقال عروة : كنت فى وليمة للربيع بن زياد ، وليتنى ما حضرتها ، ولا أجبت دعوتها .

فقال عنترة : ولِمَ ذلك يا عروة ؟ !

فقال عروة : إن الربيع كثير اللجاج ، وقد احتدم الجدل بينى وبينه فى شأنك يا عنترة ، فقد ادعى أنه أشعر العرب وأفصحها ، وما أعجبه قولى له : إن عنترة أفصح العرب لساناً وأعذبهم بياناً ، وأصفاهم قريحة ، وأثبتهم جناناً ، وأمضاهم سيفاً وسناناً ؛ فأجمع الحاضرون على ما قاله عروة ، مسفهين تزكية الربيع لنفسه .

وقطع عليهم هذا الحديث أن رأوا رجلاً مقبلاً من صدر البرية ، وجهته الخيام والمنازل ، وهو يحمل حقيبة من الطيب ، فقال مقرى الوحوش : ائتنا يا شيبوب بهذا الرجل لنقطع بقية النهار بالحديث معه ، فأتاهم به شيبوب ، وسلم الرجل وحيا وقال : دام عزكم وكمل حظكم ، وكبت عدوكم ، وابتسم لكم ثغر الزمان ، وكتبت لكم السلامة والأمان ، فقال له عنترة : دامت لك العافية أيها الكريم ، من أين جئت ؟

فقال الرجل : من مكة يا أخى .

فقال عنترة : وهل مكة موطنك ومقامك ؟

فقال الرجل : لا والله ، وما أقمت فيها إلا أياماً خمسة ، ثم جعلت أطوف حلل العرب كما ترى .

فقال عنترة : وماذا رأيت فى أسفارك من العجائب ؟

فقال الرجل : ذهبت إلى الكعبة ذات يوم من الأيام الخمسة فوجدت عبد المطلب جالساً على مكان مرتفع ، ومن حوله عرب لا يحصيهم العد ، وهو يعظهم ويقول : يا معشر العرب الزموا جد القول وصدقه ، واحفظوا الذمام ، وأطعموا الطعام ، وامسحوا على رءوس الأرامل والأيتام ، فسيظهر فى هذا العام رجل يكسر الأصنام ؛ ويعظم بيت الله الحرام ، ويبين لكم الحق والباطل ، فعسى أن يجدكم على الطريق القويم ، فيقيم فيكم ، ويتخذ أنصاره منكم . فلما سمعت منه هذا القول شغلت به ، ونمت وهو يجول فى نفسى ، فرأيت فى منامى أننى أمام الصنم الأكبر هبل ، فسألته : متى يظهر الرجل الذى حدثنا عنه عبد المطلب ؟ فقال : إذا أينع نخيل يثرب ، ووقع القحط فى بلاد المغرب ، وتصدع إيوان كسرى ، وعلق فارس بنى عبس قصيدته على الكعبة ، وأبطل فى الحرم سفك الدماء والمخاصمة ، وذلت له رقاب العرب والعجم ، وتمسح فيه بالهدايا ملوك اليمن ، وكثر فى الأرض الفساد وأطبقت الفتن ، حينئذ تطلع شمس النبوة ، فتمحو الظلام وتجلو العشوة ، ويتمنى كل شيخ أن يعود إلى شبابه ، ليهتدى بنور الحق ويكون من أنصاره ؛ ثم انتبهت من نومى وجعلت أطوف باحثاً عن بنى عبس حتى ألتقى بفارسهم عنترة ، وأحدثه بما عرفت من القول فى شأنه .

فقال عنترة : وما اسمك أيها الرجل ؟

فقال الرجل : جابر يا مولاى .

فقال عنترة : أبشر يا جابر بكل خير وهناءة ، فما كنت إلا فى انتظارك ، وما كنا نتحدث إلا فى هذا قبل قدومك، وما أنا إلا عنترة الذى تطلب لقاءه ، وسيكون إن شاء ربى ما رأيته فى منامك .

فقال جابر : تلك سفرة ما أهنأ عقباها ! وساعة ما أسبغ خيرها ! وإنى لأرجو منك أن تتخذنى لك غلاماً ، ألزم صحبتك حتى ينقضى العام ، وأرى معك فى الكعبة صدق المنام ، وحينئذ تنفحنى من المال بما يسعد أولادى ، ويجرى عليهم نسيم الرخاء .

فقال عنترة : أنت يا جابر من هذا اليوم فى منزلة أخى شيبوب حتى أضفى عليك من المال ما يغنيك ويسعد أولادك، وقد ساقك إلينا رب السماء لتنال حظك من السعادة والثراء . ولما فرغ حظهم وانتهى يومهم رجعوا إلى منازلهم ، ووصى عنترة أخاه شيبوباً بجابر خيراً ، وشاع هذا النبأ فى الأحياء فجعل الناس فريقين ، أما أحدهما فهم فرحون يتواثقون على معونة عنترة فى تعليق قصيدته ، وأما الآخر فهم مبغضون يظهرون عنترة فى مظهر العناد والتجبر ، وأما بنو زياد فقد زادوا غماً وحسرة ، وقال عمارة : نخشى أن يصيبنا شؤمه ، فيؤلب الدنيا عليه وعلينا ، وتحق على بنى عبس وبنى زياد كلمة الفناء .

فقال الربيع : إذا وجدناه جاداً فى تعليق قصيدته تركنا الديار إلى بنى فزارة ، وتركناه وبنى عبس يفعلون ما يشتهون .

وذهب الربيع إلى قيس بن زهير ، وتحدث إليه فى شأن عنترة وقصيدته ، وما يخشاه من سوء العاقبة ، فقال قيس : لا ينبغى أن نتكلم فى هذا الأمر قبل أن ينقضى العام ، على أن عنترة سيشاورنى فى أمره ، ويطلب منى معونته ، وعند ذلك سأرده عن عزمه ، وألويه عن قصده ، وأعرفه أنه لا ينبغى له أن يهلك قومه من أجل رؤيا لجابر ، لا أعتقد إلا أنها أضغاث أحلام . وكان ذلك من قيس مرضاة للربيع ، ومجاراة له على هواه .

وبعد أيام من إيوائه جابراً وإكرامه إياه ذهب إلى وليمة لعامر بن الطفيل ، ولما رجع منها لم يجد جواده الأبجر ، ولم يجد جابراً ، فظن أنه لص محتال ، وما كانت هذه الرؤيا إلا حيلة لاقتناص الأبجر وسرقته ، ثم الفرار به ، فاغتم وأحرقه الغيظ وسأل شيبوباً عنه فقال : تركته على الحالة التى كنت أتركه عليها كل ليلة ، وذلك آخر عهدى به .

٥

كان لقيط بن زرارة قد فر من الميدان هرباً ، حينما رأى ذا الخمار ودريداً قد سقطا أسيرين ، فلما قارب هو ومن معه من الهاربين أرض

بنى دارم تنفسوا الصعداء وأخذوا يذكرون عنترة وشجاعته فقال واحد منهم :
بئس رجلاً يعادى عنترة ، ويخاصم بنى عبس ما دام فيهم ذلك الفارس ،
فإن المنية فى سيفه ورمحه ، والسعادة منه كظله ، فقال لقيط : وقد كملت
سعادته بأخيه شيبوب وبجواده الأبجر ، لأنه مرهف الحس ، يكون حيث
تقع إشارته ، ويرفع يديه حيث يريد أن يرتفع على خصمه ، ويكر من
اليمين ومن الشمال تمكيناً لطعنته ، وإن إراده على الوقوف رسخ فى الأرض
كأنه الجبل ، وإن وجد الأسنة قد أحاطت به انسل من بينها وجرى كأنه
الريح لا يشق له غبار ؛ ولولا هذا الأبجر ما استطاع أن يأسر ذا الخمار ،
ولهذا فقد جعلت لمن يسرقه لى ما يشاء من المال والنعم ، فقال ذلك اللص
الذى سمى نفسه جابراً وكان اسمه المختلس بن ناهب التميمى من بنى تميم :
أنا آتيك به ، وإن أردت ذبح شيبوب وعنترة ذبحتهما ، فإن فعلت ذلك
فماذا تفعل ؟

فقال لقيط : وحق ذمة العرب لئن فعلت ذلك لأعطينك ما تشتهى
من المال .

فقال : لا أريد إلا أن تزوجنى ابنتك ، وتجعلنى على خزائنك
وأموالك .

فقال لقيط : لك ذلك ، وهؤلاء أبناء عمى شهود علينا .
فتنكر المختلس وذهب إلى عنترة وانتهز فرصة غيبته فى وليمة عامر بن

الطفيل ولبس ثياب شيبوب وتشكل بشكله ثم سرق الجواد وطار به ،
وكان حزن عنترة عليه عظيماً ، وقال لأخيه : وماذا أنت فاعل ؟ فإنى لا أطيق
صبراً على غيبة الأبجر . فتنكر شيبوب وقال لأخيه : إنى ذاهب لأبحث عنه
فلا تنتظر عودتى إلا به .

لبث عنترة ينتظر أخاه شيبوباً ، ولما طالت غيبته ساوره القلق على
أخيه ، فكان يخرج فى طائفة من صحبه إلى الخلاء ويسير فى السبل طمعاً فى
أن يجد أخاه أو يجد له رائحة أو يسمع عنه خبراً ، ثم يرجع آخر النهار بخفى
حنين ، وذات يوم أوغل فى البرية وأصحابه معه ، فرأى رجلاً مقبلاً كأنه
الريح ، فظنه أخاه شيبوباً ، ودفعه الشوق إلى لقائه فجرى نحوه ،
وأصحابه من خلفه حتى كان ذلك الرجل بينهم ، فسلم عليهم وقال :
يا وجوه العرب ، أهذه ديار بنى عامر ؟ فقالوا : نعم ، فقال : وهل بنو
عبس فيها ؟ فقال عنترة : وما حاجتك أيها العربى الكريم ؟ ! فقال :
حاجتى عند عنترة بن شداد . وكان هذا الرجل طويل الساقين ، أسود
الوجه ، أزرق العينين .

فقال عنترة : هأنذا عنترة الذى تطلبه ، فأبن عما تريد ، فإن
كنت مظلوماً كشفنا عنك ظلمك ، وإن كنت مديناً دفعنا عنك
دينك ، وإن كنت ضالاً هديناك ، وإن أردت المقام فينا كنت فينا
كأحدنا .

فقال الرجل : إنى رجل أعيش من السرقة ، وما مرت علىّ ليلة إلا سرقت فيها حصاناً أو مالاً ، وما ذلك بعيب فى الرجل ما دام يعتمد فى ليلة إلا كسبه على مواهبه وعمله وكسب يده ، ولكن العيب فى المتبطل الذى يعيش بين الناس عالة عليهم ، وقد بلغنى أن فى ديار بنى دارم فرساً اسمها سكاب وهى تفوق وزنها ذهباً ، وقد طمعت فى سرقتها لأنال من ورائها المال الوفير ، ولبثت من أجل ذلك متنكراً فى ديار بنى دارم ، فما وجدت إلى سرقتها سبيلاً ، لأن صاحبها ينام معها ولا يغفل عنها ، ولما يئست من الوصول إليها هممت بالعودة إلى ديارى ، ولكنى سمعت أن جوادك الأبجر عند لقيط بن زرارة ، وقد أعطى من سرقه مالاً جزيلاً ، فأحببت أن أسرقه وأرده إليك، لأحصل منك على ما يغنينى من المال ويسعد أولادى ، وذهبت إلى ديار لقيط بن زرارة فوجدت الوصول إليه ميسوراً، ولكنى خشيت أن ينفر منى ويستعصى علىّ ركوبه، ويفضح أمرى عند لقيط وقومه ، وربما ركبته فشرد منى ورمانى فكان فى ذلك حتفى ، فجئتك لتذهب معى إليه ، ولتركبه إن أنا سرقته ، ولتحمينى إن شعر القوم بى ، وهأنذا قد أخبرتك فانظر ماذا ترى ؟

ففرح عنترة وقال : أبشر أيها العربى ببلوغ المراد ، ولن أردك إلا سعيداً هانئاً ، ولو كان أخى شيبوب معى لذهبت الآن معك ، فلننتظر

يومين أو ثلاثة فربما عاد إلينا فيها ؛ وهم عنترة أن يأخذ الرجل ويعود به إلى الديار ، وإذا نداء يطرق أسماعهم من جوف الصحراء : أمسك يا عنترة هذا الرجل السارق المحتال . فهو الذى سرق الأبجر جوادك ، وقد ساقه الله إليك ليلاقى جزاءه على يديك . فتبينوا صاحب هذا النداء ، فوجدوه شيبوباً وهو مقبل فى سرعة عاجلة كأنه البرق ، ففرحوا بقدومه ، كما عجبوا من ندائه . ولما حضر سأله أخوه عنترة : متى رأيت هذا الرجل المسكين ؟ ! وكيف اتهمته بتلك التهمة القاسية ؟ ! وأنت تعلم أن سارق الأبجر أبيض اللون . وهذا أسوده ؟

فقال شيبوب : إن هذا المحتال أبيض اللون ولكنه صبغ وجهه ويديه ورجليه ، وإن أردت الدليل على صدقى فاكشف عن جسمه . فمد شداد يده ، وكشف عن جسمه فوجده أبيض اللون، فسل عنترة سيفه وهمّ أن يضرب عنقه . ولكن الرجل صاح قائلاً: أمهلنى يا عنترة واعلم بأنى أنا الذى سرقت الأبجر ، وقد ندمت وتبت . وسأرده إليك كما أخذته .

فقال عنترة : وأين الجواد الآن أيها الآثم الخائن ؟

فقال : إنه عند لقيط بن زرارة . وقد أغوانى ودفعنى إلى سرقته ، ووعدنى أن يزوجنى ابنته . ولكنه أخلف وعده .

* * *

فرح لقيط بالأبجر ، وأعطى المختلس مالاً كثيراً . ولكنه ما استطاع

أن يركبه أو ينتفع به ، فقد شمس عليه وعلى من تقدم إليه ، فاغتاظ لقيط وقال : لقد ضاع تعبي ومالى فى الحصول عليه ، فقال أخوه : اربط معه فرساً ، وسينالك من نسلهما ما كنت تريده من الأبجر ، فاستراح لقيط لهذا الرأى .

وكان عند مفرج بن وثاب فرس اسمها سكاب ، وقد رغب النعمان فى شرائها ولكن صاحبها أبى ، أما لقيط فإنه استطاع أن يشتريها وربطها بجوار الأبجر ، وقال للمختلس : لقد كنت تعاهدت معك على أن أزوجك ابنتى إن أنت أحضرت رأس شيبوب وعنترة ، فإما اكتفيت بما أخذته من المال ، وإما أحضرت رأسيهما وزوجتك ابنتى .

فقال المختلس : سأحضر إليك رأسيهما . وكان ذهابه إلى عنترة من أجل ذلك ، وكان اللقاء ونداء شيبوب وكشف أمره وإعلان توبته . ولكن كيف عرف شيبوب ذلك ؟

خرج شيبوب من الديار متنكراً باحثاً عن الأبجر جواد أخيه ، وظنه فى بنى فزارة ، فذهب إليها ومكث فيها ليلة إلا قليلاً ، ولما لم يجده قصد إلى بنى دارم ، ولكنه قبل أن يدخل ديارهم وجد رجلاً سائراً ، وهوخارج من تلك الديار ، فقال فى نفسه : يحسن أن أختفى عن هذا الرجل وأقتفى أثره وأكون منه بحيث أسمع كلامه ، وعسى أن أسمع منه شيئاً يكون مفتاح العثور على الأبجر ، وتبع شيبوب ذلك الرجل ، ولما أمعن فى السير وخلا به

الجو والليل تذكر ابنة لقيط ، وكان اسمها بانة العلم ، فجعل ينشد الشعر فى أنه يحبها ، وأنه سرق الأبجر من أجلها ، وأنه ذاهب الآن ليحضر رأس عنترة وشيبوب ليكونا مهراً لها ، وأن محبتها هونت عليه ركوب الأخطار.

سمع شيبوب ذلك جميعه منه ، فحرص على أن يتبعه ولا يفارقه بحيث لا يعلم الرجل به ، ولا يرتاب فى أن أحداً يقتفيه. واستمر من خلفه حتى حضر لدى أخيه وكشف له عن حقيقة هذا الخائن . ولما قص شيبوب تلك القصة ، سل عامر بن الطفيل سيفه وضرب به عنقه وقال : إنه لإثم مبين أن نترك هذا الخائن بين الأحياء .

ثم تحدثوا فى أمر الأبجر وكيف يردونه ، فقال عنترة : اكتموا الأمر ولا تنقلوه إلى أحد ، فإن بنى زياد إن عرفوه سبقونا إلى لقيط وحذروه ، فيضيع الأبجر من أيدينا .

فقال شيبوب : سيروا معى فى عشرة فرسان ، وعلىّ تدبير عودة الأبجر وإخراجه من محبسه ، فأرسل عنترة عشرة فرسان وأحضر لهم عُددهم وأسلحتهم ، ثم سار بهم إلى ديار بنى دارم ، ولما كانوا على مقربة منها ، اختفى بهم فى واد منقطع ، وجعلهم فيه حتى يدخل على لقيط بن زرارة ويحتال لأخذ الأبجر ، وقبل أن يغادرهم لمح عنترة عبداً سائراً فى الطريق قدماً لا يلتفت إلى شىء مما حوله ، فقال عنترة : ائتنى يا شيبوب بهذا العبد لنسأله فربما وجدنا عنده ما يفيدنا ؛ فذهب إليه شيبوب وأتى به ، وكان

هذا العبد من بنى فزارة ، ومن عبيد سنان بن حارثة ، فسأله عنترة عما جاء به إلى هذه الديار فقال : أفلح من صدق ، ولا أكتم عنك شيئاً . لقد بعثنى سيدى ومولاى سنان بن حارثة إلى لقيط لأبلغه أن يجمع جنوده ويسير بهم إلى بنى عبس ، ليكونوا عوناً للحارث الوهاب سيد بنى غسان الذى سار إليهم من دمشق فى جنود كثيرة ليثأر منهم لولده بدر الذى قتلته أنت فى أرض تيماء حينما خلصت مسيكة . فغضب عنترة غضباً شديداً وقال : وكم لك من الأيام فى هذه الديار ؟ فقال : سبعة أيام ، وقد بدأ العرب يتوافدون إليه .

فقال عنترة : وهل تعرف شيئاً عن جوادى الأبجر ؟ فقال : إنه عند لقيط مكرم ، ولا يستطيع أحد أن يدنو منه ، وقد أحضر له فرساً اسمها سكاب ، وجمع بينه وبينها ليجعل منهما نسلاً ينتفع به ، وقد بلغنى أنه أرسل إليك من يقتلك ويأتيه برأسك ورأس أخيك شيبوب ، وكان يود أن أمكث عنده حتى أحضر وليمة زواج أخيه مالك بن حاجب بجارية من العنبرتين اسمها المهرية ، وربما مرت بكم العروس اليوم أو غداً ، فدبروا أمركم على ضوء ما سمعتم ؛ ثم ودعهم العبد وانطلق فى سبيله ، فقال عنترة : إذا جاءت العروس فادخل يا شيبوب معها الديار ، وائتنى بالأبجر حتى نسرع بالعودة قبل أن يأتى جنود الحارث الوهاب .

فقال شيبوب : إذا مرت العروس بكم فخذوها وسأعود إليكم بالأبجر

وإن كان فى يد كسرى أو قيصر .

فقال عنترة : ولكن الفرس التى ربطها بجواره ستلد منه جواداً يفوقه .

فقال شيبوب : سآتيك بالأبجر والفرس سكاب .

فقال عنترة : اذهب إليهم فى جنح الظلام حتى لا يراك أحد .

فقال شيبوب : لن أذهب إليهم إلا فى ضوء النهار ؛ فقد دبرت أمرى بحيث لا يعرفنى منهم أحد .

وتركهم شيبوب فى الصباح فرأى العروس مقبلة فى جماعة من الفرسان والعبيد يحيط بهودجها أربعة هوادج مزينة بالجواهر ، فانفلت شيبوب راجعاً إلى أخيه وأعلمه بقدوم العروس ، ووصاهم ألا يفلت من أيديهم أحد ، فقال عنترة : لن يفلت منهم أحد ، وإن كانت لهم أجنحة يطيرون بها إلى السماء . ثم تفرقوا ثلاث فرق ، وأحاطوا بالعروس من كل جانب ، وكان عنترة وشيبوب من خلف العروس وفرسانها حتى لا يهرب منهم أحد . وفى أقل من ساعة كان فرسان العروس وعبيدها قد بادوا ونهبت أموالهم وسبيت العروس ، فأمرهم شيبوب أن يعودوا إلى مكمنهم من الوادى المنقطع ، ووعدهم أن يأتيهم بالأبجر والفرس سكاب ليلاً . ثم ودعهم وسار إلى ديار بنى دارم فدخلها ظهراً ، ووجدهم قد أقاموا المضارب والزينات ، وهم ينتظرون قدوم العروس ، فانتهز شيبوب فرصة اجتماع هذه الجموع وانشغالهم بالأفراح واستقبال العروس وذهب إلى أبيات لقيط وكمن مختفياً .

وهو على مرأى من الأبجر والفرس والعبد الذى يقوم بخدمتهما . ولما جاء الليل أقبل لقيط وهو فى نشوة سكره غير مالك قواه ، فأقبل شيبوب إليه ، وقبل الأرض بين يديه ، وجعل يمدحه ويثنى عليه ، فوقف لقيط متعجباً وقال : من أى العرب أنت ؟ فقال شيبوب فى ثبات وجرأة : يا مولاى ! إنى رسول سنان بن حارثة إليك ، فقال : حيا الله ذلك الأمير ، ولقد رحل بالأمس عبده لامع من عندى .

فقال شيبوب : صدقت يا سيدى ، ولقد لقيته وأخبرنى أنه أقام عندك سبعة أيام ، وقد رجع من عندك يثنى عليك ، وهو أخى ؛ وقد بلغنى أنه أمرك أن تجمع الجنود من كل مكان ، ولكنى أتيتك لأحذرك من أعدائك ، فإن مولاى سنان بن حارثة بعد أن أرسل إليك أخى لامعاً أتاه بعض الجواسيس من عبيده ، وأخبروه أن السارق الذى سرق الأبجر ، ورجع من عندك ليأتيك برأس عنترة وأخيه قد عرف وقبض عليه عنترة بمعونة شيبوب أخيه ، وأخبره أن الأبجر عندك ، وقص عليه كل شىء ؛ وأمر عنترة أن يقتل السارق ويصلب ، وهو قادم إليك فى جماعة من قومه ليأخذ جواده الأبجر ،وقد أرسلنى إليك لتأخذ حذرك من عنترة وأهواله ، ومن أخيه شيبوب ومكره ، وهو يأمرك أن تفرق رجالك فى كل مكان ، لعلهم يلتقون بشيبوب ويقتلونه ، ومولاى يخشى على رأسك فى هذه الأيام وبخاصة إذا كنت برجالك مع جيش الحارث الوهاب ، فانتبه لقيط من سكرته وقال :

لقد أثقلت ظهرى ، وحيرتنى فى أمرى ، فإن عندى من العرب خلقاً كثيراً ، وإن جاءنى عنترة الآن فى ألف فارس ، واختلط بهذه الجموع ما بان لأحد من كثرتهم ، ولهذا فليس لى إلا أن أجعل على الأبجر جماعة من العبيد لحراسته ، على أن تكون أنت معنا ، فقد بدا لى رأى أحب أن أطلعك عليه .

فقال شيبوب : وما هو ؟

فقال لقيط : أريد أن أبعثك فى عشرين عبداً وعشرة من الفرسان لحراسة الفرس الأبجر ، حتى تنكشف عنى هذه الغمة ، وتطهر هذه الديار من بنى عبس ، ثم أحتال فى قتل عنترة ، لنستريح من شره ، فما رأيك ؟

فقال شيبوب : ذلك رأى حق ، فإن المحافظة على الأبجر واجبة ، ما دامت أرضكم عرضة لقدوم عنترة وأخيه شيبوب الذى أعرفه ، ولا أخاف من أحد غيره ، وأخشى أن يكون قد سبق أخاه عنترة إلى هذه الديار ، ولهذا أرى أن تحافظوا على أنفسكم هذه الليلة ، وفى الصباح سأبحث عنه بين القبائل مختفياً ، فإذا عثرت عليه أمسكته وجئت به إليك لتفعل به ما شئت . وإن أردت أن يكمل فرحكم فاصلبوه بين الخيام واجعلوه هدفاً للسهام والنبال .

فاستراح لقيط لحديث شيبوب وقال : دبر أنت أيها العبد أمرنا فى هذه الليلة ، وقم أنت بحراسة ديارنا ما دام الفرسان غائبين فى سكرهم ، وخذ ما شئت من العبيد ، وكونوا رقوداً بين الخيام ، وحافظوا على

الأبجر والفرس سكاب حتى يطلع النهار ، ونصرف أمورنا على أساس ما يبلغنا من الأخبار . ثم أمر لقيط عبيده أن يكونوا فى طاعة شيبوب ، وتركهم وذهب إلى مقره ومضجعه ، فلزم فراشه ونام .

قال شيبوب للعبيد : إن عنترة لا يمكنه أن يصل إلى الديار قبل مضى خمسة أيام فاذهبوا إلى مضاجعكم واستريحوا من تعبكم وناموا غير خائفين . وأخذ منهم ثلاثة وذهب بهم إلى مكان الأبجر والفرس ، وأخذ يحدثهم حتى غرقوا فى نومهم ، ثم تسلل إلى مكان الأبجر والفرس فوجد السائس نائماً بين مربطيهما وملابسه عند رأسه . فلبسها وأمسك خنجره بيده ، وفصل رأسه عن جسمه ، ثم صفر إلى الأبجر الصفير الذى يعرفه منه فحدق فيه وعرفه ، فحمحم وفرح واطمأن إليه وأطاعه ، وفك شيبوب رباطهما وانسل بهما إلى أخيه عنترة .

أما عنترة ومن معه فإنهم سبوا العروس ومن معها من البنات ، ولبثوا ينتظرون حتى جاءهم شيبوب ومعه الأبجر والفرس ، فقص عليهم ما فعل ، وأمرهم أن يبادروا بالرحيل قبل أن يسيل الوادى عليهم فرساناً ورجالاً ، وليدركوا قومهم قبل أن تبغتهم جنود الحارث الوهاب . فقال عنترة : ذلك هو الحق ، ولولا ما يحيط بقومنا من الخطر ما تركت هذه الأرض حتى أنتقم من لقيط وأجازيه شر الجزاء ، وإن كان فى ألوف مؤلفة من الفرسان والرجال . ثم رحلوا ومعهم العروس والبنات .

٦

صحا لقيط فى الصباح من نومه وسكره ، فانفلت إلى مكان الأبجر والفرس ليطمئن على وجودهما ، فوجد العبيد نائمين ، فأيقظهم وسألهم عن العبد الفزارى فقالوا : جعل يحدثنا حتى أخذنا النوم ، وما استيقظنا إلا هذه الساعة ، ولا ندرى أين ذهب ؛ فدخل لقيط إلى مكان الأبجر والفرس فلم يجدهما ووجد السائس مذبوحاً ، فعض بنان الندم وجعل يقلب كفيه أسفاً وحسرة ، وقال : ما كان هذا العبد الفزارى إلا شيبوباً ، وقد خدعنا بمحاله ومكره ، ثم جمع إخوته وقص عليهم ما جرى ، فقال حاجب : هون عليك يا لقيط ، فإنا ذاهبون إلى قتال بنى عبس مع الحارث الوهاب ، فإذا انتصرنا عليهم فسيكون عنترة وجواده ملك يمينك ، وإن انتصروا علينا فذلك ما لا حيلة لنا فيه . وبينما هم يتحدثون قدم عليهم ثلاثة رجال وقالوا : إن عروس الأمير مالك قد سبيت هى ومن معها من الجوارى ، وقتل من كان معها من الفرسان ، ونهبت الأموال . فأصاب لقيطا غم من بعد غم ، واشتد به الخوف على مضاربه ، فأمر قومه أن يحافظوا على أموالهم ومضاربهم خشية أن يكون فى الأمر شىء جديد من المكروه لا يزال ينتظرهم .

علم لقيط أن ما حل به وبالعروس من عنترة وأخيه شيبوب ، فسار

فى إخوته وجنوده إلى وادى الأخدود ، ونزل فيه ، وجعل يجمع إليه الجنود والأنصار ، وأنفذ أخاه حاجباً إلى سيد بنى كندة ، وأخبره بما وقع عليه من عنترة ، وسأله النجدة والمعونة ، وكذلك استغاث بشيخ بنى تميم شاكياً إليه ما أصابه .

أما عنترة وصحبه فإنهم جدوا فى المسير إلى ديارهم ، وكانت المهرية العروس عاكفة على البكاء ليلاً ونهاراً ، فسألها عنترة : أتبكين لأنك لم تزفى إلى زوجك مالك ؟

فقالت العروس : لا والله ، فما بكيت من أجله ، لأنى تزوجته غصباً ، ولكنى أبكى على ابن عمى الذى نشأت معه وألفته وألفنى ، ورغب فى الزواج منى ، ولكنه ذهب ليحصل على مهرى فلم يعد ، ولا ندرى له وجهة ولا مقاماً ، ولما زارنا مالك فى أيام العيد رآنى بين البنات فخطبنى وأسبغ علينا الخيرات والنعم ، ففرح أبى وزوجنى منه غصباً ، وزفنى إليه ، ثم وقع بى ما أنت به أعلم ، ولا يزال قلبى عالقاً بابن عمى الذى أبكى من أجله . فطمأنها عنترة ووعدها أن يبحث عنه ويزوجها منه ، وكان عنترة قد وعد عروة بن الورد أن يزوجه من هذه المهرية .

ولاح لهم إذ ذاك من صدر البرية خيل وجمال تتسابق إلى الغدران فأمر عنترة أبا الأبيض عروة أن يذهب إلى من معها من الرجال ويسألهم عن بنى عبس وما عسى أن يكون قد أصابهم من أعدائهم ، فانطلق

بجواده وتبعه فرسان خمسة ، فوجد خمسة من العبيد ومعهم فارس وثيق التركيب طويل القامة فى عدة قتاله وعلى جواده ، فسأله عروة : إلى أين تريد أيها الفارس ؟ فأعجله بصرخة مدوية وقال له : لا تسأل عما لا يعنيك ، واستسلم أنت ومن معك للأسر ، وإلا عجلت لكم الهلاك ؛ ثم هجم على الفرسان فجرح منهم ثلاثة ، فخاف عروة على نفسه ، وحمل عليه حملة خاطفة ، وجعلا يتجالدان حتى أحسا رهقاً ونصباً ، وخشى أصحاب عروة عليه فداروا حول الفارس ، وضربوا جواده فسقط على الأرض بذلك الفارس ، وانقضوا عليه وأوثقوه وساقوه أسيراً ، ورجعوا به وبالعبيد والخيل والجمال إلى عنترة ، وقصوا عليه ما حدث ؛ فقال عنترة : اقتلوه وسيروا بنا إلى الديار ، فإن لنا فيها عملاً يشغلنا عن غيره . ولكن المهرية ألقت نفسها على صدر هذا الفارس باكية قائلة : يا عنترة إن أردت قتله فاقتلنى قبله ، فهذا ابن عمى الذى لا أنفك باكية من أجله ، فبحرمة ما بينك وبين عبلة من الوداد والمحبة لا تفجعنى فى ابن عمى ، ولا تحرمنى الحياة بقتله .

فقال عنترة : يا مهرية ، أنت آمنة على ابن عمك ، وقد أطلقته وأطلقتك معه من أجلك ، وبما أقسمت علىّ بهذا القسم العظيم فى نفسى . ففرحت ودعت له بالخير العميم ، ثم أمر عنترة أبا الأبيض أن يطلق الفارس ومن معه من العبيد ، ويرد عليهم أموالهم وأغنامهم ، ثم قص على الفارس قصة المهرية بنت عمه ، وقال له خذها وتزوج منها ولا ترجع بها إلى أهلها حتى

لا تؤخذ منك غصباً ، فشكر له الفارس جميل معروفه ، وأثنى عليه ثناء جميلاً ، وودعه وذهب إلى سبيله ، ومعه ابنة عمه ، وعبيده وأمواله ، وما وهب له عنترة وصحبه من الهدايا والنعم .

واستأنف عنترة المسير إلى ديار بنى عامر حتى وصل إليها هو وصحبه ، فاستقبلهم بنو عبس فى غبطة وشوق عظيمين .

وجلس عنترة إلى الملك قيس وسألهم عن أحوالهم مدة غيبته عنهم فقالوا : كنا نعيش فى أمن ورخاء ، ولكن فارساً ملثماً أقبل إلينا صامتاً لا يتكلم ، وألقى بيننا صرة ثم غاب فى غمار البيداء ، ولما فتحنا الصرة وجدنا فيها رملاً أصفر وأشواكاً قوية مدببة وعشرة أحجار صغيرة ، فهممنا أن ندركه لنسأله فقال الملك قيس : إنه لن يخون عهده وذمامه ، ليخرج عن صمته وإن قطعتم عنقه ، وإنى مفسر لكم ما أشار إليه بصرته . أما الرمل فهو إشارة إلى جنود لا عدد لها ، وأما صفرته فهى إشارة إلى أنهم من بنى الأصفر ، وأما الأشواك فهى رمز القوة ، وأما الحجارة العشرة فهى إيذان بأنهم قادمون إلينا بعد عشرة أيام .

فابتسم عنترة وقال : لقد صدق الملك فى تأويله ، وسأنبئكم بالحقيقة : إن الحارث الوهاب ملك دمشق قادم إليكم بجنوده ليثأر لابنه بدر الذى قتلته فى تيماء ، وقد استعان بسنان بن حارثة ، ولقيط بن زرارة ، وقد جمعوا جموعهم وهم جادون فى المسير إليكم . ثم قص عليهم ما وقع له فى غيبته ، وكيف رد الأبجر جواده ومعه فرس كريمة ، ثم التفت إلى بنى عامر وقال :

نحن قوم كثر أعداؤنا ، ولا يسكن السيف بيننا وبينهم ، ونحن نازلون بجواركم ، فإن كنتم معنا فى البأساء والضراء بقينا فى جواركم ، وإن كان وجودنا يزعج أمنكم ويعكر عليكم صفو الحياة رحلنا إلى أرض غير أرضكم ، فإنا لا نرضى أن نرهقكم من أجلنا عسراً .

فقال الأخوص بن جعفر : نحن معكم فى السراء والضراء ، ولا يزال عهد الإخاء بيننا وبينكم قائماً وإن فنينا من أجلكم ، وإنى أجدد الآن عهد الإخاء والتعاون وأزيده قوة على قوته ، فأقيموا فى جوارنا فما نحن إلا منكم وما أنتم إلا منا . فاطمأن الملك قيس ، ونشر عيونه وجواسيسه ليقفوا على أخبار هذه الجيوش المغيرة .

وقال عنترة لأبيه شداد : إنى فى خوف شديد على أختى مروة وابنها الهطال وبنى غطفان ، لأن سنان بن حارثة قد يخطر بباله أن يقول للحارث الوهاب : هؤلاء أبناء عم الذين قتلوا ابنك ، فيطيش الغضب بعقله ويغير عليهم ويقطع دابرهم .

فقال شداد : وكيف يعلم بنو غطفان بقدوم هذه الجيوش الجرارة ثم لا يرحلون من طريقهم ؟

فقال عنترة : قد لا يعلمون ، وربما لجأ سنان إلى الكيد والمكر ، فيقطع السبل على الغادى والرائح حتى لا ينقل أحد خبر غزوهم لنا ، ليبغتونا فى منازلنا .

فقال شداد : إن قولك لا يعدو الصواب يا عنترة ، ومن الجائز أن يقع ما ظننت .

ولقد كان الأمر كما توقعه عنترة فإن سنان بن حارثة ملأ السبل بجنوده ليقطعوها على السالكين، وكان فى قومه امرأة من بنى عبس فخشيت على قومها أن تبغتهم الجنود على غرة وغفلة ، وقالت لابنها الصامت : يا بنى ! إن أخوالك الآن تدبر لهم سبل الهلاك من أعدائهم ، فاحتل للوصول إليهم وإخبارهم بما دبره الحارث وأنصاره من وسائل الهلاك والدمار حتى يأخذوا حذرهم ويستعدوا لملاقاة أعدائهم ، فركب الصامت ناقته وخرج يجرى إلى أخواله، فأمسكه جنود سنان وأحضروه بين يديه فقال له : إنك ذاهب إلى بنى عبس ، لأن أمك منهم ، لتخبرهم بإغارتنا عليهم .

فقال : لا علم لى بذلك ، ولكنى ذاهب إلى المرعى للبحث عن فحل شرد وتبعه طائفة من الجمال .

فقال سنان : لن أسمح لك بالخروج حتى تقسم بالكعبة وزمزم والحطيم أنك لا تخبر أحداً قريباً أو بعيداً بأمرنا ، فأقسم الصامت له ، ولما خرج من عنده فكر فى حيلة تمكنه من إخبار بنى عبس بهذه الغزوة المهلكة، فأحضر الرمل والشوك والحجارة ووضعها فى صرة ، ثم ألقى بها بين أيدى بنى عبس وهو ساكت لا يتكلم وانطلق إلى سبيله .

وكان شداد قد استمهل ابنه عنترة يومين أو ثلاثة عسى أن يجد فى الأمر شيء جديد ، وبعد ذلك يرحل إلى بنى غطفان لحمايتهم ، وبعد يومين كان بنو غطفان جميعاً حاضرين ، وقال ملكهم ماجد : لقد رحلنا

إليكم لننزل بجواركم ، ولتحمونا من هذه الجيوش المغيرة التى للحارث الوهاب وسنان بن حارثة ولقيط بن زرارة . فاطمأن عنترة واستراح .

وقال الملك قيس : إذا كان بنو عامر وبنو عبس قد أصبحوا وحدة متماسكة فإنى أرى أن من الواجب توحيد القيادة ، ليسير الجميع فى طرقها المرسومة ، ونزداد قوة على قوة .

فقال الأخوص بن جعفر : ولتكن أنت قائدنا وصاحب الأمر فينا ، ونحن فى طاعتك ، ونموت فى ظل رايتك .

فقال قيس : إذا كان الأمر كذلك فإنى أرى أن ننتقل إلى شعاب جبلة لنجعل النساء والعيال والأموال فى أوديتها محصنة بحصونها ، ليفرغ الرجال لقتال العدو بعيداً عن نسائنا وأموالنا .

فقال الأخوص : ذلك أقوم سبيل لملاقاة هذا العدو الذى يريد أن يمحونا بكثرة عدده ، وأمر الملك بالرحيل إلى شعاب جبلة ، واطمأنت النساء والأموال فى أوديتها الحصينة بالجبال المحيطة بها ، وأخذت الفرسان تستعد لملاقاة الأعداء .

أقبلت جيوش الحارث وأنصاره بقيادة ضامر ابن عمه ، فوجدوا ديار بنى عامر وبنى عبس خالية ، وعجب سنان بن حارثة لمعرفتهم نبأ قدومهم مع أنه كان قد أقفل الطرق وقطع السبل حتى لا يتسرب إلى بنى عبس وعامر نبأ قدومهم، وقال : أغلب الظن أنهم هربوا إلى شعاب جبلة

ليحتموا بها؛ فقال ضامر : وهل هذه الجبال تحميهم منا ، سوف ترى أنى لن أترك منهم أحداً يجرى فى عروقه دم الحياة .

سار جيش الحارث وأنصاره إلى شعاب جبلة وهناك قامت المعركة حامية ، ولقيت طلائع جيوش الحارث من بنى عبس وعامر وغطفان من الأهوال الجسام ما لم يخطر لهم على بال ، ورأوا من عنترة ما فرق جموعهم وصدع بنيان صفوفهم ، وملأ قلوبهم فزعاً ورعباً . ولكن الأعداء كثر جمعهم فحملوا على بنى عبس وعامر وغطفان حملات قاسية دامت أكثر من عشرين يوماً وانتهت بأسر عامر بن الطفيل ومقرى الوحوش وعنترة ، وأيقن بنو عبس أنهم غلبوا وصاحت نساؤهم بالنحيب والبكاء ، ولكن الملك قيساً طمأنهم وأمر أن يحبسوا عن النوق والجمال الماء ، فصدعوا بأمره وهم لا يعرفون الحكمة من ذلك ، ولما اشتدا العطش بالنوق والجمال وكانت كثيرة العدد أمرهم أن يسوقوها أمامهم ، ويرموها بالسهام من الخلف فانطاقت كالسيل الجارف على الأعداء وداستهم بأخفافها وقتلت منهم خلقاً كثيراً ، وكان بنو عبس من ورائها يقاتلون قتالاً مراً . فسقط فى يد الأعداء وولت جيوش الحارث مهزومة ، أما فزارة وسنان بن حارثة فإنهم دخلوا على عنترة ومن معه من الأسرى وفكوهم من وثاقهم وقالوا : نحن لكم من اليوم إخوة وأنصار ، ثم ساروا بهم إلى الملك قيس وهناك أعطوه عهداً أن يكونوا له أنصاراً وأعواناً ، ثم رجع كل إلى موطنه .

وكان بنو عبس راجعين وفيهم عنترة وعن يمينه مقرى الوحوش وعن شماله عروة ، فقال : يا بنى العم ! نحن راجعون إلى الأوطان وما أظن فى جوارنا لبنى فزارة وسنان بن حارثة خيراً ولا أتوقع منهم إلا كل شر .

فقال عروة : يا بن العم ! وإنى راجع إلى الوطن وفى قلبى من الهم ما يشغله عن الدنيا ، وإذا كنت تعيننى وتأخذ بيدى ، انصرف عنها الهم وسعدت فى حياتى .

فقال عنترة : قل ما شئت يا عروة فلن تجدنى إلا كما تحب .

٧

لكل امرئ فى حياته سبيل يسلكه ، على حسب ما توحى به إليه ميوله ، وترسم غرائزه ، تحقيقاً للغرض الأسمى فى نظره من حياته ، والذى تهيئه له فطرته ونشأته : فهذا كريم ، وذاك وفى ، وذلك شجاع ، وهذا أسير هوى وشهوة ، وذلك محب للمال يجمعه ، ويعيش محروماً ظمآن وفى البحر فمه .

وكذلك كان عروة بن الورد زاهداً فى النساء ، لا هم له إلا كسب المال ، وإنفاقه على الفقراء والصعاليك ، شاملاً به القريب والبعيد ، جامعاً

بعطائه بين من يعرف ومن لا يعرف ، ولهذا عرف بين العرب بعروة الصعاليك .

ولذلك كان ينفر أن يقيد حياته بزوجة وأولاد .

فما استمع لأخته سلمى وقد حاولت أن ترغبه فى الزواج من لميس ابنة عمه همام الغطفانى ، وما أفادت رقاها ، وقد جعلت تصورها له كأنها من الحور العين ، لأنه لا يزال منساقاً لعواطفه ، فهو لا ينفك يكسب المال ويسخر به .

وظل عروة على مبدئه هذا حتى وقع نظره على لميس، فأكبر جمالها وراعه منظرها ؛ فتبدل غرض الحياة فى نفسه ، إذ ملكت عليه قلبه ، وتسلطت على أحاسيسه ، فسلك السبيل إلى أبيها ، ليزوجه منها ، ولكن أباها كان قد أبرم اتفاقاً بينه وبين عمرو بن معديكرب الزبيدى لتكون زوجاً له .

وأنّى لعروة أن يتغلب على عمرو هذا ، ويحول بينه وبين لميس، وهو فارس بعيد المنال، لا يقوى عروة على ملاقاته ! وأنى لأبيها أن يرجع فى قوله، وينقض ما أبرمه ، وإن أصبحت ابنته غاية ابن عمها عروة من حياته ، بعد أن كان لا تشغل قلبه أنثى ؟ ! !

لم يجد عروة فارساً يكبت عمراً هذا ومن معه إلا عنترة فقال له :

يا بن العم ، لقد دهمنى من الأمر ما أنقض ظهرى، وأقض مضجعى ،

وعجزت عن حمله ، وتمنيت القتل دونه ! !

فشخص إليه عنترة وقال :

وما ذلك الأمر الذى تمنيت القتل دونه ؟ لا تكتم عنى شيئاً ، فإن الإنسان إن أخفى مرضه فقد غامر بنفسه ، وأودى بحياته !

فقال عروة حينما كنا فى ديارنا قبل أن نقاتل بنى فزارة ، وقبل أن ندخل بلاد اليمن قدمت إلينا أختى سلمى من بنى غطفان زائرة ، وكانت تأتينى من عند زوجها للزيارة من حين إلى حين ، وكلما رأتنى عزباً أشارت علىّ بالزواج ، ورغبتنى فى لميس بنت همام الغطفانى ، وذكرت لى محاسنها وما امتازت به من جمال وكمال ، وما زالت ترقينى وتغرينى بأنها ستقوم عنى بدفع مهرها لتنعم هى بزواجى منها ، ولكنى كنت أعرض عن قولها ، وأقول لها : يا أم حسان ، نقل الجفان إلى الضيفان ، وتنفيس الكرب عمن جار عليه الزمان ، أحب إلى نفسى من الزواج ؛ وما زال أمرى مع أختى على هذه الحال حتى جئنا بنى غطفان ، وكنت أختلف إلى أختى سلمى فى بيت زوجها ؛ وذات يوم رأيت لميس خارجة من بيت أمها ، ذاهبة إلى بيت عمها ، فلكت علىّ حسى ورشدى ، وسألت أختى : من هذه الفتاة يا سلمى ؟ فقالت : هذه لميس بنت همام الغطفانى ، التى كنت أرجو أن تكون لك زوجة ، وأنت تضرب عن قولى صفحاً ، فقلت : ما كنت أعلم أنها كما رأيت ، وأود الآن يا أختى أن

تخطبيها لأخيك ، فقالت : الصيف ضيعت اللبن ، وما بقى لك من سبيل إليها ، ولا لأحد فيها مطمع ، لأن القوم زوجوها من رجل جليل القدر ، وقد غدا ليأتيهم بمهرها ، فأصابنى من الغم ما أصابنى ، وقلت لأختى : ولمن زوجوها ؟ وكم حمل إليها فى مهرها ؟ فقالت : ما سألت عن المهر ، ولكنى سألت عن زوجها فقالوا : إنه عمرو بن معديكرب الزبيدى ، ورأيتها فرحة به ، وتردد بين لداتها محاسنه وشجاعته وكرمه، وكثرة أمواله ، وأنه حج بيت الله الحرام ، وقالت : لو كان حاضراً لرد عنهم وحده جنود بنى غسان ، وأمنوا طوارق الحدثان . فلما سمعتُ قولها طار لبى ، وأردت أن أفضى إليك بذات نفسى ، ولكن ما حاق بنا من الخطر صرفنى عن التحدث إليك بأمرى هذا ، والآن قد سلمنا وأمنا ، فشكوت إليك حالى ، لتنقذنى من حيرتى واضطرابى !

فقال عنترة : أما سألت أختك : كيف عرف بنو زبيد هذه الفتاة ؟ وكيف وصلوا إليها وتزوجوا منها ؟

فقال عروة : سألتها فقالت : إن أم الفتاة من بنى مراد ، وصحبتها فى زيارتها لقومها وأهلها ، وكانت كبشة أخت عمرو بن معديكرب فى بنى مراد ، فلما رأتها وأعجبتها وصفتها لعمرو أخيها ، فجاء أباها وخطبها ، وما زوجها أهلها حتى أمرتُهم بزواجها ، فقد كانت محبوسة عليك، منذ أن كانت بنت تسع سنوات إلى الآن ، وأنا فى هذه المدة أحملك على

الزواج منها ، وأنت تعرض عنى ، ولا تستمع لقولى ، وكنت أخفى عنهم إعراضك وصدك، راجية أن يتحول قلبك ، وترضى بالزواج منها ، ولما وقع بينكم وبين بنى فزارة ما وقع ، وقتلتم حذيفة ، وغضب عليكم النعمان، ودخلتم بلاد اليمن ، رأيت من الواجب والوفاء ألا أقف عقبة فى سبيل هذه الفتاة ، وألا أكون سبباً فى بوار سوقها ، وحرمانها من زوج تسكن إليه ويسكن إليها — فاجتمعت بأمها وقلت لها : جزاك الله عنا كل خير ، فقد فعلت ما يعجز عنه غيرك من الوفاء وحفظ الذمام ، فقد وقع ما لم يكن فى الحسبان ، ودخل أخى مع بنى عبس بلاد اليمن ، ولا أدرى ، أيرجع إلينا سالماً ، أم تكون فيها منيته ! ! وليس من المروءة أن أحبس ابنتك بلا زواج ، فزوجيها من شئت من الآن . فوالله يا أخى ، لقد وقع عليها قولى هذا وقع السهام ، وأقامت على حبسها مدة من الزمان ، حتى أراد الله زواجها وكان ما كان . ولما زرت أمها وجدتها فرحة قريرة العين وقالت : يا سلمى ، ما نسينا رب السماء ، فقد رزق ابنتى برجل مثل أخيك ، فقلت : الحمد لله الذى سرنا بزواج ابنتك من بطل شجاع كريم .

فقال عنترة : أما طلب لميس الآن من أبيها بعد أن أبرم اتفاقاً بزواجها فغير مستساغ ، ولا نجد من يقبله من العرب ، لأنه حمل لأبيها أن يقف موقف غدر ونقض ميثاق ، وتلك نقيصة لا ينبغى أن نحمله عليها ؛ وأرى أن نأخذها من بعلها غلبة وقهراً، وذلك أن نترصده فى طريقه،

وهو عائد بها إلى دياره ، فنغير عليه ، ونأخذها أسيرة ، وعليك أن تعرف ليلة زفافها ، لنكون فى مكمننا من سبيله فى الوقت المعلوم . فاطمأن عروة ، ووصى أخته سلمى أن تكون حريصة على معرفة ليلة الزفاف ، لتخبره بها ، كما وصى عنترة أخته مروة أم الهطال بذلك .

٨

لم يكن عمرو هذا أول حياته موضع فخار لأبويه ، فقد كان مبطاناً ، مشغوفاً بأكل الطعام ، دون أن يهتم بشأن من شئون أهله ، أو أمر من أمور قومه ، ولهذا سقطت مكانته فى نفس أبيه ، فكان يعامله معاملة العبيد ، ويرسله بالنعم إلى المراعى ، وكان هو فى تلك المراعى ، لا يحفل بالأنعام وشئونها ، فهو يركب الخيل ، يكرّ بها هنا وهناك ، على سبيل اللهو والتسلية ، حتى أجاد ركوبها ، وأجاد الكر والفر ، والطعن والضرب ، وقراع الفرسان ، أجاد كل أولئك ، على غير قصد منه ، ودون أن يعرف هذا عنه أحد .

وكان الأشعث بن ضمرة أحد ملوك العرب ، قدأخضع بسيفه كثيراً من القبائل والعشائر ، وجعل له منها جزية سنوية تمكيناً لنفوذه وسطوته ،

ولكن قبيلة زبيد شقت عليه عصا الطاعة ، وامتنعت أن تعطيه الإتاوة المفروضة ، فخف إليها بجنده وخيله ، ليؤدبها ويخضعها ، ويأخذ إتاوته على الرغم منها ، ولما أحس بنو زبيد منه ذلك ، خرجوا إليه هم ورجال خثعم ومراد ، والتقوا به بعيداً عن الديار والمنازل بثلاث مراحل ، ولكنهم على كثرتهم وشجاعتهم لم يقدروا عليه ، فانقلبوا إلى منازلهم مهزومين .

رأى عمرو بن معديكرب بكاء النساء ، وعجز الرجال ، وسوء المنقلب ، وساءه أن رأى أخته قد أرخت ذوائبها صارخة باكية ، وكان على الجبل وقد فرغ من أكل ما منحته إياه أمه ليشبع نَهمه ، ويفى بما وعدها من هزيمة الأعداء ، فثارت فى رأسه نخوة العرب ، وأخذ من أبيه جواده ، وعدة قتاله ، وجرى إلى الأشعث وجنده ، الذين كانوا لا ينفكون يتعقبون قومه ، فقتل منهم كثيراً ، ورأى أبطال قومه منه ذلك فالتفوا حوله وآزروه فى جهاده ، وما زال يذيق الأعداء من بأسه ، حتى قتل الأشعث ومزق جنده ، وطردهم عن قومه خائبين .

لمع نجم عمرو بعد هذه المعركة ، وألقى بنو زبيد مقادتهم فى يده ، واتخذوه سيدهم وحاميهم ، وكان يود بعد هذا أن يقدم صداق لميس بنت همام ويدخل بها ، ولكن شاغلاً شغله .

كان الملك زياد بن أكال المرائر بأرض حضرموت ، وله بنت تدعى غفران ، وقد أبى أن يزوجها إلا برجل شجاع حسيب نسيب ، وإن كان

فقيراً معدماً ، على الرغم من كثرة طالبيها من ذوى الثراء الواسع ، فأشار عليه أحد حجابه أن يبعث فى موسم الحج رسولاً إلى الكعبة ، ومعه هدية سنية ، وهناك يعلن أنك جعلت تلك الهدية لمن يمتاز بشجاعته وحسبه وكرم نفسه ، فإذا ما عثر عليه رسولك فى هذا الموسم المجموع له الناس من كل حدب ، أعطاه الهدية ، وجاء به إليك فأكرمته وزوجته ، وذلك خير سبيل فى اختيار الزوج الذى تنشده لابنتك غفران .

وافق الملك زياد على هذا الرأى ، وأعد هدية ثمينة من الجواهر واللآلئ والديباج ، وحملها رسوله ، وذهب بها إلى الكعبة .

وأعلن رسول زياد فى الكعبة أن هذه هدية من ملكه ، لمن عرف بشجاعته وجرأته ، وحسبه وكرم نفسه ؛ وكان موسم الحج جامعاً ، فأراد كثير من فرسان العرب المشهورين أن يتقدموا ، ولكن الناس أبوا أن يتقدم لأخذ هذه الهدية إلا عمرو بن معديكرب ، وزكوه لدى حاجب الملك زياد ، فقال الحاجب : لتحظ بهديتك ، على أن تذكر لى بعض مواقفك ، التى تجعلك أهلا لهذه المنحة دون غيرك .

فقال عمرو بن معد يكرب : لقد ذاع ما عرفت به من تلك الخلال الحميدة بين العرب وانتشر ، حتى غزا الخدور ، وتحدثت به النساء ، وتمنين أن أكون لهن بعلاً ، وهذه رملة بنت الحارث المخزومى تقول :

ألا ليت جارى كجار الحصين   وبعلى عمرو بن معد يكرب

همام شجاع جميل فصيـ   ـح كثير العطاء عريق النسب

وقد روّعت القبائل منى ، فأصبحت كل قبيلة لا تزوج بناتها إلا لفرسان عشيرتها ، مخافة أن يصيب العروس سبى ، ويصيب أهلها سيفى وهى منتقلة إلى زوجها فى قبيلة أخرى ، وهذا منازل بن المنهال ، خطب لنفسه ابنة حسان سيد بنى جلهمة ، فاعتذر عن الاستجابة له وقال : إنك سيد كريم ، ولكننى لا أستطيع نقل ابنتى إلى قبيلتك ، مخافة عمرو ابن معديكرب .

وقد خرجت مرة فى جماعتى للغزو والكسب ، ولما مررت بديار بنى هوازن ليلاً ، سمعت صوتاً منبعثاً من جوف خيامهم يقول : من مبلغ عمرو ابن معد يكرب حالنا ، حتى يبادر إلى خلاصنا ، من ذلك الأسر الذى نقاسيه ، فخلفت جماعتى ، وذهبت راجلاً إلى الخيام وحدى ، وفككت أسرى قومى ، وكانوا سبعة ، ورجعت بهم سالمين ، وفى الصباح تبعنى فرسان بنى هوازن لينالوا منى ، فأصبتهم بداهية دهياء ، قسمتهم إلى قتيل وجريح وهارب .

التفت الحاجب إلى جماعة العرب الحاضرين وقال : أحق ما قال عمرو ؟ !

فقالوا : نعم ، إنه لحق مثل ما أنك تسمع .

فمنحه الهدية وقال : إن مليكى يرغب فى لقائك وإكرامك .

فقال عمرو : ذلك بعد أن أرجع جماعتى إلى ديارهم ، فإنى أخشى عليهم مخاوف الطريق .

فقال الرسول : بعد كم من الأيام تكون عند مليكى ؟

فقال عمرو : بعد أربعين يوماً .

وفى اليوم الحادى والأربعين من اجتماعهم هذا كان عمرو لدى الملك زياد بن أكال المرائر . فأكرمه وفرح به ، وعرض عليه أن يزوجه ابنته . ليكون هو وقومه فى كنفه وحمايته ، فقبل عمرو ، وتزوجها ، وأقام عندهم ثمانية شهور ، ثم أبدى رغبته فى الرجوع إلى أهله ، فأصرت غفران أن تكون فى صحبة زوجها عمرو أينما كان ، وشيعهم الملك ومعهم من الأموال والهدايا شىء كثير ، ووصاه بابنته خيراً .

كانت غفران عند أبيها من المقصورات فى الخيام ، فلم تحتمل هذا السفر الطويل ، ولما وصل عمرو مرجاً طيب المقام نزل بها فيه ، لتأخذ راحتها ، وترضح عنها آلامها ومتاعبها ، ولكن الأجل كان قد جاء ، فما لبثت فى مقامها هذا ثلاثة أيام حتى كانت قد أسلمت روحها إلى بارئها ، وأودعت قبرها ، وقد حزن عليها عمرو حزناً أليماً ، فجعل أصحابه يعزونه ، ويخففون آلامه ، وقالوا : إن لك عوضاً منها . ولا تزال فى يمينك ، وهى لميس بنت همام ، التى وعدت أباها أن تحضر إليه صداقها ، ومعنا الآن أموال كثيرة ، ولا بأس أن تذهب إلى أبيها ، وتعطيه من تلك الأموال

مهرها ، وتتزوجها ، فتطرح عن عاتقك تلك الأحزان والآلام .

وكان عمرو عند حميه فى بلاد غطفان ، فاستقبل استقبالاً كله حفاوة وتكريم ، وأغدق على حميه العطايا ، ومنحه خاتماً من نفيس الجواهر ، وطلب إليه أن يجهز ابنته لميس ، فصدع بما طلب .

عرف عروة موعد الزفاف ، فطلب عنترة ليساعده فى تنفيذ ما اتفقا عليه ، فوجده فى بلاد الشام يطلب خمراً ، فأصابه من الهم ما أصابه ، وساوره اليأس من تنفيذ رغبته . ولكنه آثر أن يذهب هو وبعض من صحبه ، فإما فاز وانتصر وإما مات وقبر .

وفى واد من الأودية ، فى طريق عمرو ، نزل عروة وجماعته ، وكمنوا فيه . منتشرين فى نواحيه ، على صلة بعضهم ببعض ، ولما طال انتظارهم ، دون أن يمر عمرو بهم . خشى عروة أن يكون قد سلك سبيلاً آخر فى عودته . فأشار على صحبه أن يعكفوا فى أماكنهم حتى يذهب متنكراً إلى ديار غطفان ، ليقف على ما كان من أمر هذا الزواج .

ووجد عروة حى غطفان يموج فرحاً ، فالولائم قائمة ، والملاعب غاصة . والمزاهر عازفة ، والدفوف ضاربة ، والأغانى متجاوبة ، فعرف أن القوم فى فرحة الزفاف ، وكاد يقتل نفسه أسفاً على غيبة عنترة ، ولما هم بالرجوع إلى صحبه ، رأى عبداً قادماً من الخيام ، فأقبل عروة عليه وسلم ،

فرد السلام فى فصيح من الكلم وقال : إن كنت غريباً فدونك الموائد ممدودة ، وخذ منها ما تشاء من الطعام ،

فقال عروة : ولكنى أرى الحى فى زياط وفرح ، فهل هذا عرس أو وليمة أو غنيمة ؟

فقال العبد : إنه عرس لم ير بنو غطفان مثله من قبل .

فقال عروة : لعل الزوجين من بيوتات العرب ، حتى شمل الفرح بهما جميع الأحياء ! ! فمن يكونان ؟

فقال العبد : لميس بنت همام تزف إلى عمرو بن معديكرب ، سيد بنى زبيد .

فقال عروة : ومتى يرحلون ؟

فقال العبد : ما أكثر لجاجك ، وأن تقفو ما لا يعنيك ! ! ثم انفلت من أمامه إلى وجهته لا يلوى على شىء .

ارتد عروة إلى صحبه غضبان أسفاً ، ووصاهم أن يتفانوا فى معونته ، وألا يتركوه حتى يظفر بعمرو أو يقتل دون طلبته ، فقالوا : نحن معك إلى النهاية ، ولن نبرح مكاننا هذا ، وإن تخطفنا الموت ، وتعاهدوا على الانتظار والإغارة على عمرو وهو عائد بزوجه إلى دياره .

٩

زفت لميس إلى زوجها ، وبعد ثلاث ليال من الزفاف ، رجع إلى أهله ، فى جمهرة من رجاله الذين كانوا معه ، ونساء ورجال من أهل زوجه ، وجدوا فى السير حتى كانوا عند الغدير الذى كمن فيه عروة وصحبه ، فأمر عمرو أن يستريحوا فى ظلاله ، ويسقوا من مائه ، ثم يستأنفوا سيرهم ، بعد أن يأخذوا راحتهم . وما كادوا ينزلون حتى وثب عليهم عروة وجماعته ، وشنوها غارة شعواء ، فما ذعر عمرو من تلك الغارة ، ونادى فيمن معه ، أن يحيطوا بهودج زوجه ، ويدعوا له قتال هؤلاء المغيرين الفجرة ، وتلقاهم بطعن وضرب دارت لهما أعينهم فى رءوسهم ، وأوثق عروة فى قيود أسره ، وجعل بقية صحبه نهباً للقتل والأسر والتشريد .

أحضر عمرو عروة بين يديه ، وسأله عما حمله على فعلته هذه ، فقال : من أجل لميس بنت عمى .

فقال عمرو : وما أخرك عن طلبها من أبيها قبل أن أخطبها لنفسى .

فقال عروة : كثيراً ما رغبتنى فيها أختى سلمى ، ولكنى كنت زاهداً فى النساء ، لا يشغلنى منهن شاغل ، ولما رأيتها بدّل جمالها فى نفسى رأيى فى النساء ، فشغفت بها ، وعقدت هناءتى بزواجى منها ، وذلك ما أخرنى عن طلبها لنفسى ، قبل أن تطلبها لنفسك .

فقال عمرو : لقد كانت خطبتها لنفسك مستساغة ، لو أنه لم يتعلق بها حق لغيرك ، ولكنك امتنعت وتوانيت حتى ضاعت من يدك ، وأصبحت فى يد غيرك ، فارتكبت بطلبها الآن خطيئتين : خطيئة فى حق نفسك بتقصيرك وامتناعك عن طلبها وهى خالية ، وخطيئة فى حق بعدوانك علىّ فيها ، فركبت الجهل والغرور ، وألقيت بنفسك فى مهاوى التلف والثبور ، وأين عبدكم عنترة ؟ وكيف لا يصحبك فى تحقيق مأربك هذا ، وأنا أعلم أنه كثيراً ما يلقى بنفسه فى كل أمر خطير ؟ ! وقد أغار على ديارنا من قديم ، وقتل منا خالد بن محارب ، وأسر زوجه الجيداء بنت زاهر وأسر والدى وجز ناصيته ، وما منعنى عن لقائه فى الأيام الماضية ، إلا استجابتى لنفسى فيما كانت تهواه من طعام ونساء ، والإغارة من أجلهن على القبائل والقوافل هنا وهناك ، وما دمت قد وقعت فى يدى فسأرسلك إلى قوم خالد بن محارب ، لينالوا من تعذيبك كل مأرب ، وعسى أن يأتى لخلاصك عبدكم عنترة ، وحينئذ ألتقى به ، فإن ظهرت عليه جعلت لى ذكراً خالداً ، وإن ظهر علىّ فديت نفسى بك ، وبالأسرى من أصحابك ، وعقدت معه صلحاً ينفعه وينفعنى .

فقال عروة : وستجده إن شاءالله لديك حاضراً ، وسيكون خيرى على يديه ، فما خاض معمعة إلا خرج منها مظفراً منصوراً .

فقال عمرو : وذلك هو اللقاء الذى أبغيه ، وأرجو أن يكون أجله قريباً .

وكانت لميس قد اطمأنت إلى زواجها من عمرو ، وامتلأ قلبها بمحبته وخشيت أن يصيبه سوء فى أثناء قتاله عروة ورجاله ، ولما بلغها فوزه ، سكن خوفها ، وشاع السرور فى قلبها ، ودخل عليها عمرو مزهواً بنصره ، يبسم له أمله ، فى لقاء عنترة ، والانتصار عليه ، ولكنها تعلم من شجاعة عنترة فوق ما يعلم ، وليست أقدر على ملاقاة الأهوال كالرجل ، فقالت له : لست فى ريب فى شجاعتك وقوتك ، ولكن محبتى لك ، تزيدنى حرصاً عليك ، ورجائى أن تفك من الأسر عروة ورجاله ، ولا تدع سبيلاً لعنترة فى لقائك ، فقد رأيت منه فى حروب سابقة ما تطير له ألباب الأبطال الصناديد .

فغضب عمرو وقال : وسأجعل هذا العبد الذى تخشينه عبرة ومثلاً ، ولن يقود زمام ناقتك ذليلاً مهاناً إلا ذلك العبد الأسود ، فقرى عيناً ، وارتقبى لعمرو نصراً وفخراً .

استأنف عمرو سيره إلى دياره ، حتى أشرف بعد ثلاثة أيام على أرض المصانع المنقطعة عن العمران ، الكثيرة الأشجار والأعشاب ، وإذا بجواده يحجم عن السير فزعاً ، وما أجدى فيه ضربه وهمزه ، فأرسل عمرو بصره إلى الأمام ، ليرى ما جعل جواده يكف عن السير خائفاً ، فألفى أسداً ضخم الجثة ، عريض اللبدة ، مكشراً عن أنيابه ، يتأهب لاغتيال ما يجده ، فأراد عمرو أن يرى زوجه مبلغ ثباته وجرأته ، ونزل عن جواده ،

متقلداً سيفه ومجنه ، وأسرع إلى الأسد يسقيه حتفه ، وهناك صاح صيحة كأنها الرعد ، وضربه بسيفه على أم رأسه ضربة جعلت منه نصفى أسد ، ثم رجع يتوثب زهواً وفخاراً ، فعجب عروة أن رأى عمراً يفعل ما لا يفعله إلا عنترة ، وأصبحت له بذلك مهابة فوق مهابته ، ثم واصل سيره ، حتى كان بأرض ذات مياه وأشجار يقال لها عين إياض ، فرأى أن ينزل فيها للراحة .

وما لبث أن رأى غباراً فى البيداء سد أقطار الجواء . فوقف مرتقباً تلك السرية ، ليقرر منها موقفه ، ومصيرها من يده ، وكان فى طليعة تلك السرية نوق وفصلان ، وأسيران موثقان ، ومن ورائهما عبيد كثير ، يتقدمهم فارس عارى الرأس ، عاطل من الدروع والزرد ، ممدود القامة ، تنم أسارير وجهه ، وتواثق أعضائه ، وبريق عينيه ، عن جبار عنيد ، كأنه الشيطان المريد .

دار فى خلد عمرو أن يرسل إليه رسولاً من فرسانه ، لينظر من أى القبائل هؤلاء القادمون ، وماذا يقصدون ؟ ولكن هذا الفارس لم يمهله حتى يرسل رسوله ، وإذا به على جواده بين يديه ، وقال لعمرو : انتسب أيها الفتى ، قبل أن يصيبك منى أذى .

فاتقد عمرو غيظاً وغضباً وقال : ارجع أيها العبد إلى رفقائك من حيث أتيت ، فما أقعدنى عن الإسراع إليكم ، إلا إشفاقى عليكم ، وما دمت تجهلنى فأنا فارس العرب ، عمرو بن معد يكرب .

فابتسم الفارس ابتسامة تنم عما يكنه فى صدره من ثبات ويقين بنصره ، وقال : أهلاً بمنية النفس ، وطلبة القلب ، هذه الغنائم التى تساق بين يدى ، غنمتها من بنى زبيد ، بعد ما جرحت أخاك عبد الله ، وقتلت كثيراً من قومك ، وسأعزز هذا النصر بنصر مثله ، بالتغلب ، عليك هذه الساعة .

كان هذا العبد الفارس يدعى سليك بن السلكة ، وكانت له فى نفوس العرب خشية ومخافة ، وكانوا يسمونه شيطان البر ، وكان من العدائين الذين يجيدون القتال رجالاً وركباناً ، ملأ أوقاته بسفك الدماء ، وخطف البنات من الخدور ، فى غلظة وقسوة وفجور ، وكثيراً ما كان العرب يصفونه لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويذكرون كثيراً من مواقفه الجريئة ، وقد قال فيه عمرو بن معد يكرب : ما خشيت بأس أحد فى الجاهلية إلا بأس عبدين وحرين ، أما العبدان فهما عنترة وسليك بن السلكة ، وأما الحران فهما عامر بن الطفيل وزيد الخيل . عرف عمرو ما يبغيه سليك هذا من قتاله ، وعز عليه أن يقاتل قومه ، ويأخذ منهم تلك الغنائم ، ويجرح أخاه عبد الله ، فقال : ولقد ساقك القدر إلى أن تسقى تعب الموت أنفاساً أو نفساً ، فارجع إلى صحبك ، وتدرع بدرعك ، حتى لا يكون لك علينا حجة ، ولا يقال عنى : إن عمراً لم يمهل فارساً حتى يأخذ للقتال عدته .

لميس تفك وثاق عروة وصحبه

فقال سليك : لقد جهلتنى ، إن سليكاً لا يستعيذ بدرع ولا يتقى حساماً بزرد أو درقة ، ولن أقاتلك إلا فى ذلك الثوب الذى ترى ، ولن أرجع عنك حتى أصل إلى من فى هذا الهودج من النساء .

ودارت بينهما معركة حامية ، طال أمدها ، وبدا عبوسها ، وخشيت لميس على زوجها منها ، فنزلت من هودجها وأقبلت على صحبه ، وطلبت إليهم أن يهجموا على سليك ، ويساعدوا عمراً فى قتاله ؛ فقالوا : نخشى إن حاربنا أن تحمل علينا فرسان سليك ، ويتغلبوا علينا ، فلم تجد وسيلة إلا أن تذهب إلى عروة ابن عمها ومن معه من الأسرى ، وفكت قيودهم ، ورجتهم أن يفروا إلى أبيها ، يمدها بجيش من عنده ، يدفع عن عمرو سليكاً وصحبه ، وأفهمتهم أن عمراً ما كان يضمر لهم شراً ، وأنه كثيراً ما وعدها بإطلاق سراحهم ، إلا أنه كان يبغى بأسركم لقاء عنترة ، لأنه يرغب فى مبارزته ، من غير أن يضمر له فى نفسه سوءاً ، إذ كان مقدراً لنفسه أحد المصيرين ، فإما غالبه فمنّ عليه بإطلاقه وإطلاقكم ، وإما غُلب فجعلكم فداء له ، ووقى نفسه بكم سوء العاقبة ، فأبت نخوة عروة أن يترك عمراً فى شدته ، وخاض القتال معه هو وجماعته ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، فقد ترك سليك جواده ، وهجم على عمرو من يمينه ويساره ومن خلفه وقدامه ، فى سرعة البرق الخاطف ، وأصابه فى كتفه ، فوقع من فوق جواده ، فابتدره بالوثاق ، وساقه أسيراً ، والتف أصحاب سليك

بعروة وجماعته ، ورجال عمرو ، واستعرت بينهما نار القتال ، حتى فرق بينهم قدوم الليل ، وباتت لميس فى حزن عميم ، وبكاء أليم ، على أسر زوجها عمرو .

ولما جاء الصباح نادى سليك فى جماعته : أن هبوا لقتال هؤلاء القوم حتى ننتهى من هزيمتهم فى أقرب وقت ، قبل أن يصيبنا فى هذه البيداء ، ما يعوقنا عن الرجوع إلى الديار .

ولما قدم عنترة من بلاد الشام ، سأل عن عروة ، فأخبروه خبره فخشى أن يقتل أو يؤسر ، وأسرع من خلفه هو وأبوه شداد ومقرى الوحوش ، وشيبوب يسعى بين أيديهم .

ولما وصلوا إلى مكان المعركة التى أسر فيها عروة رأوا جثث القتلى مبعثرة فحزن عنترة وخشى أن يكون عروة قد هلك مع الهالكين ، وأعلن أنه لن يسكت عن عمرو حتى يثأر لعروة ، ويقطع دابر عمرو وقومه ، واستأنفوا سيرهم طامعين أن يدركوهم قبل أن يصلوا إلى ديارهم ، وسبقهم شيبوب فوقف على خبرهم . وعرف أنهم فى معركة دامية ، مع سليك بن السلكة .

ولما وصلوا إلى عروة قبل أن يسفر الصبح فرح بهم ، وأعلمهم كل ما جرى ، وأن عمراً قد أسر ، ففرح عنترة ، إذ رأى عروة سالماً ، وبشره بنيل ما يريد .

وقامت الحرب على أشدها ، وجال عنترة فى غمارها ، فزلزل القلوب ، وأزاغ الأبصار ، وأدرك سليك سوء المصير ، إن توانى عن لقاء عنترة ، فتلقاه عنترة كالطود الثابت ، وكر عليه كرة ، كادت تكون القاضية ، فغادر سليك جواده ، ليكون أسرع فى كره وفره ، من عنترة على جواده ، ولكن عنترة لم يمهله حتى غادر أيضاً جواده ، وتقارعا راجلين ، فلما رأى سليك أنه لا محالة مغلوب ، وأن صحبه من شدة ما حاق بهم من القتل فروا هاربين ــ أسلم هو ساقيه للريح ، وجد فى الهرب عادياً ، فلم تدركه خيل.

وكان شداد عائداً من خلف الهاربين من جماعة سليك ، فرأى سليكاً هارباً ، فأقبل عليه وأراد أن يطعنه فى صدره ، ولكن سليكاً كان أسبق منه ، فطعنه فى جسده بالرمح طعنة أسالت دمه ، وغاب فى جوف الصحراء فى سرعة البرق .

ولما عاد شداد إلى عنترة ضمد جراحه ، وأسف على أن فر سليك من بين يديه ، وقال : لو علمت أنه ترجل عن جواده ، ابتغاء الهرب ، ما أبقيت عليه حتى يترجل ، ولعجلت له منيته قبل أن ينزل عن جواده ، ولكن القدر له حكمه ، ما دام فى العمر بقية . وهكذا انتهت المعركة بفوز عروة ، وباتوا فرحين يهنئ بعضهم بعضاً ، ويشكر جميعهم لعنترة فضله عليهم ، ودفعه السوء عنهم ، فقال عنترة :

المرء لأهله ، وغداً نقتل عمراً ونأخذ زوجه لتكون لك يا عروة !

فقال عروة : يا أبا الفوارس ! إن الأمر قد تغير فى نفسى وأخشى سوء المصير .

فقال عنترة : وكيف يكون ذلك ؟ ! !

فقال عروة: لقد علمت أن لميس قد شغفت بعمرو زوجها حبًّا ، ولم يرقأ لها دمع مدة محنته ، فإذا قتلناه وذهبنا بها إلى أبيها للزواج بها بعد عمرو فقد تعف عن الزواج بغيره ، ونكون قد خسرنا بطلاً مغواراً كعمرو ، وأكون قد أحرجت نفسى مع فتاة لا تحب أن تكون لى زوجاً ، ومن النخوة أن يزهد المرء فيمن تزهد فيه ، وألا يذل نفسه بالتكالب عليها ما دامت لا ترغب فيه ، وأرى أن تطلق سراح عمرو ومن معه ، ليكون لنا بفضل العفو عنه صديقاً حمياً ، وحليفاً معيناً .

فقال عنترة : ذلك موقف كريم ولو كنت مثلك فى حب عبلة ، لنفضت يدى من التعلق بها وما قاسيت فى هواها هذه المتاعب والأهوال ، ولكنى أعظمت إنسانيتها ، فقال عروة : إن عبلة تريدك كما تريدها ، وقد خلقت لك ، ولو رغبتْ عنك ما أعرتها نظرة من بصرك فأكرمت فيها هذا الحب البرىء .

وفى الصباح أمر عنترة أن يحضر عمرو بين يديه ، فقال له : إن زوجك لميس من بنات أعمامنا اللائى ألزمنا أنفسنا حمايتهن ، ورفع منازلهن ، وقد ظن عروة أنك لست لها كفئاً ، فأحب أن يأخذها منك قسراً ، ويرجعها إلى بيتها ، ليزوجها من كفء لها ، ولما رأى فى قتالك إياه ما أنت

عليه من بطولة نادرة وشجاعة بالغة ، غير رأيه فيك ، وعرفك رجلاً عظيماً فى رجولته وشجاعته ونبله ، فأحب أن تمسك عليك زوجك و يتخذ منك أخاً حمياً ، وقد جئنا بك ، لنضع رأيه أمامك ، ونعرف موضع الصنيعة عندك .

فقال عمرو : لقد أصاب صنيعكم موضعه ، ودل على ما أنتم عليه من خلق كريم ، ولا بد أن أجزيكم خير الجزاء ، وأما أنا فلا أعرف لى ذنباً إلا أنى تزوجت بهذه الفتاة ، ولو علمت أن لكم فيها مأرباً لتزوجت غيرها من النساء ، وقد كمن لى عروة فى طريقى ، وظهر فجأة لقتالى ، فلما غلبته وعرفته أردت إطلاقه ، فذكر لى شمائلك ، وشوقنى إلى لقائك ، وقد بدا لى من الشجاعة فوق ما حدثنى به ، إذ قاتلت من أسرنى ، وكان بين يديك كأنه الغزال بين يدى الأسد الهصور ، وقد ذهب ما فى نفسى من القدرة على لقائك ، فما أنت إلا فريد عصرك ، وإن كان قد بدا منى خطأ فإنى أقف بين يديك موقف التائب المعتذر .

ثم أمر عنترة فأخلى سبيله وسبيل من معه ، ورد إليهم أموالهم ، وأكلوا هنيئاً ، وشربوا مريئاً .

ولما هم عنترة بالرجوع إلى الديار ألح عليه عمرو أن يضيفه هو وفرسانه ، ولكن عنترة أبى معتذراً ، وتعلل بتبلبل ذهنه ، لحلم رآه فى منامه ، ثم ودع بعضهم بعضاً ، وهم على حال من الإخاء والتواثق العظيمين .

١٠

كان اعتذار عنترة عن تلبية رغبة عمرو بالرؤيا التى بلبلت خاطره مثار قلق فى نفوس صحبه ، فما أوغلوا فى مسالك الصحراء حتى سألوه :

أكانت رؤياك التى اعتذرت بها حقًّا أم تعللاً وتخلصاً ؟

فقال عنترة : ليس هناك ما يحملنا على التعالل ، فقد كانت حقًّا ، وإنى لأخشى أن تكون صادقة .

فقالوا : وهل لديك مانع من أن تقصها علينا ؟

فقال عنترة : أخذتنى إغفاءة من النوم ، فرأيت فيما يرى النائم أن عامر بن الطفيل ، يصلى نار حرب جامحة ، وقد انقطع حزام جواده ، ومن حوله الأبطال يطلبونه ، وهو ينادى : أدركنى يا عنترة ! فنهضت ملبياً نداءه ، فوجدتنى على فراش نومى ، فجزعت من أجله ، وظننت أنه يتجرع مرارة مرض أو قتال ، ولهذا عقدت العزم على زيارته ، والاطمئنان عليه .

وأراد من معه أن يصحبه فى زيارته عامراً ، ولكنه أبى ، وأمرهم أن يتابعوا سيرهم إلى الديار حتى يستريح والد عنترة من آلام جراحه

التى أصابته فى قتال سليك وعمرو بن معديكرب ، واختار للسير معه مقرى الوحوش ، وشدد وصيته لأخيه شيبوب أن يعنى بأبيه شداد ويعالجه .

وكان عنترة فى ديار بنى عامر ، فألفاها تموج بالمغيرين ، ووجد عامراً فى نفر قليل مستبسلاً ، ويقاتل مستيئساً وهو يصيح : يابنى العم ! اثبتوا قليلاً ، واحموا ظهرى ، وسترون منى طعنات ، تعلمتها من أخى عنترة ، ثم حمل عامر على الأعداء منادياً : يالعبس ! يالعدنان !

فلما رأى عنترة وسمع قال لصاحبه : لقد صدقت رؤياى ، فخض معى غمرات تلك الحرب ، وارتقب الغلب ، فلن أترك لهؤلاء الأعداء اللئام باقية ، ثم خب فيها ووضع ، وصاح قائلاً : أبشر يا عامر بالنصر العاجل على الأعداء ، فقد أسمعت بندائك حيًّا أجاب النداء ؛ ثم تفجرت ينابيع الدماء وبعثرت الأشلاء ، ففزع الأعداء وتفرقوا شذر مذر ، ولاذ زعيمهم منازل بن سهلب بالفرار ، وكشفت الغمة عن بنى عامر ، وشملتهم السكينة والغبطة ، ولما رجعوا إلى منازلهم وخيامهم لقيهم نساء يبكين ، فسألهن عامر : هل حل بالمنازل ما يبكيكن ؟

فقلن : سُبِىَ من الحى سبع حرائر ، فيهن أختك وأمك ونساء من بنى عمك .

فاربد وجهه غضباً ؛ فابتدره عنترة قائلاً : لا تحزن . فورب السماء

والأرض لأرجعن النساء مكرمات ، بعد أن أنكل بالأعداء .

ركب عنترة وعامر ومقرى الوحوش خيولهم ، وأطلقوا لها أعنتها ، تجرى فى الصحراء على غير هدى ، وظلوا سائرين ، حتى نزلوا بأرض أنكرها عامر — وهو من أعلم العرب بمسالك الصحراء ومنازلها ، حتى قيل فيه : « إنه لا يضل حتى يضل سهيل » — فقال مقرى الوحوش : لقد ضللنا ! ! وأخشى أن يسلمنا هذا الضلال إلى الفناء ، وكان جديراً بنا أن نلبث فى الديار ، وننفذ العبيد خلف الأعداء ، ليعرفوا مضاربهم ، ثم نلحق بهم على هدى من عبيدنا وروادنا .

وما كاد يتم قولته حتى لاحت لهم أشباح من البطاح ، فقال عامر : لعل هؤلاء القادمين أعداؤنا ، فلنرتقب حتى يقربوا منا .

* * *

كان الذى أسر النساء فارس جبار يدعى مسهر بن كريم ، من بنى تميم ، وذلك أنه لما عرف عنترة وحضوره ، أيقن أنه غالب لا محالة ، فعول على أن يأخذ ما يستطيعه من مغانم ونساء ، وينجو هارباً بما غنم ، قبل أن يحل به العدم ، وكان فى صحبته خمسون فارساً من قومه ، درجوا فى الفيافى على غير هدى ، وأمعنوا فى البعد حتى اطمأنوا ، وإذا بهم فى مكان لا يعرفونه ، وأوجسوا منه خيفة ، فأدركوا أنهم قد ضلوا ، فأشار عليهم مسهر أن يبقى بعضهم يحرس النساء والمال ، وينتشر

الباقون فى الأرض عسى أن يجدوا لهم من هذا الضلال مخرجاً ، وما كادوا يسيرون حتى بدت أشباحهم لعنترة وصاحبيه .

وما ظهرت أشباحهم حتى خف إليهم عنترة وصاحباه ، وصرخ فيهم صرخة زلزلت أفئدتهم ، وجال فيهم بسيفه ، فأصبحوا بين قتيل وهارب .

وكانت النساء قد عرفن صوت عنترة ، ورأين ما فعله بالأعداء ، فصحن قائلات : نحن نساؤك يا عنترة ، نحفظ لك المنة والمفخرة ، دمت فينا حامياً وخليلاً ، وجزاك الله عنا خيراً جزيلاً .

وباتوا ليلتهم فى مكانهم ، لا يعكر عليهم صفو انتصارهم إلا خوف الضلال فى الصحراء ، ونفاد الزاد والماء .

ولما لاح وجه النهار أشار عليهم عنترة أن يسيروا فى جهة واحدة ، ما دام فى الخيل قدرة ، حتى يصيبنا ما كتب لنا من نجاة أو وفاة . وقطعوا النهار فى السير حتى انتهوا إلى جبل لاذوا بأكنافه ، وقد أخذ منهم التعب كل مأخذ ، فأسلموا أنفسهم إلى سنة من النوم .

ولما لاح لهم ضوء الفجر ركبوا خيولهم وساروا ، فرفعت النساء أكفهن إلى السماء قائلات : اللهم يا من أضل وهدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، اجعل لنا من همنا فرجاً ، ومن ضيقنا مخرجاً ، واهدنا إلى سواء السبيل .

فاستجاب الله لهن هذا الدعاء ، وأرسل عليهم السماء مدراراً ، فشربوا وتزودوا من الماء ، وجدوا فى قطع الفيافى ، حتى ظهرت لهم خيام لقوم ، فخفوا إليها مسرعين ، وما كادوا يقتربون منها ، حتى لقيهم غلام فى ربيع شبابه ، فحياهم بتحية طيبة ، ودعاهم إلى منزله ، لينال شرف إكرامهم ، فاستجابوا لدعوته فرحين شاكرين ، وعرف الغلام منهم ما أصابهم من ضلال وضنك ، فبالغ فى إكرامهم ، والحفاوة بهم .

وبعد أن طعموا وشربوا واستراحوا سأل عنترة الغلام : من تكون من العرب أيها الفتى الكريم ؟

فقال الغلام : نحن هنا أربعون بيتاً من بنى كنانة ، هجرنا أوطاننا وأرضنا مع أميرنا واقد ، واعتصمنا بهذا الجبل ، مخافة عنترة بن شداد حامية بنى عبس .

فالتفت عامر إلى الغلام ومن معه من سادات قومه وقال : لا خوف عليكم بعد اليوم من عنترة ، فهو الآن من بين ضيوفكم ، الذين غمرهم كرمكم ، وحسن لقائكم ، ولن ينسى لكم هذا الفضل مدى الحياة ، فأبشروا بصداقته لكم ، وحرصه على أمنكم وهناءتكم .

فاستبشر الغلام وذهب إلى عمه واقد وبشره بهذه الصداقة السعيدة ، فسر الأمير واقد ، وجاء هو وكبار قومه ، ودخلوا على عنترة وصاحبيه ، ووجوههم تشرق فرحاً وغبطة ، وطلبوا إلى عنترة عهد أمانهم فقال : لكم

ذلك ، وأرى أن ترحلوا معى إلى منازلنا لأحميكم فيها من كل مكروه ، ففرحوا بذلك ، وعقدوا عزمهم على صحبة عنترة حيث ينزلهم بجواره ويصبحون فى حمايته .

واختار لهم عنترة مكاناً من أرض بنى عبس فنزلوا فيه ، ووهب لهم عنترة كثيراً من الأموال ، ومنحهم الإقامة فى حرية مطلقة ، لا يخشون فيها ضنكاً ولا أذى ، ثم ذهب هو وصحبه ونساء قومه إلى ديار بنى عبس ، وكان ذلك وقت غروب الشمس .

فرح بنو عبس بمقدم عنترة ، واستقبلوه استقبالاً كريماً ، وسألوه عما جرى له مدة غيبته ، فلم يخف عنهم من أمرها شيئاً . وكان أبوه شداد قد برئ من جراحه ، فسأله عن حال القوم مدة غيبته ، فقال : اعلم يا ولدى أن الأحقاد لا تزال يئز بها قلب الربيع ، ولا يفتأ يكيد لك كلما حانت له فرصة ، فقد كان قدومى إليهم جريحاً مثار اليقين عنده أنك قتلت ، وأعلن ذلك فى بنى عمومته ، وجعل يصب فى أذن الملك قيس أن عنترة منبع الشر فينا ، ومهبط البلاء علينا ، ولا تنس أيها الملك ما حاق بنا من شدة فى بلاد اليمن ، ولولا أختك المتجردة لحق علينا فيها الفناء ، وهذا موقفه من عمرو بن معديكرب من أجل عروة بن الورد وزواجه ، فإنه إن قتل عمراً أو أسره ، نفر بنو زبيد فى عدد الحصى ، وأذاقونا البأس والوبال ؛ وجعل يروضه على كرهك ، حتى أبغضك ونفر

منك، وجعل عمارة يظهر الشماتة ويتعلق بأهداب الأمانى قائلاً : حمداً لله الذى أمات عنترة قبل أن تلد له عبلة ذكراً أو أنثى .

كان ذلك يجرى فيزيد من حقد الملك عليك ، وفرح الربيع وعشيرته ، وحزن أبيك وأهلك ، وإنى أحمد الله الذى ردك إلينا سالماً منصوراً ، وكبتهم بقدومك مرفوع الرأس ، سابغ الفضل ، كما أحزنهم بمهرك الذى ولدته فرسك سكاب ، وكان لها خير عوض .

فقال عنترة : لا يزال الربيع يسعى إلى حتفه بظلفه ، وسيكون لى معه يوم مشهود ، يبقى خالد الأثر والفخار ، ثم أووْا إلى سكون الليل .

وفى الصباح ذهب عنترة إلى الملك قيس فهنأه هذا بسلامة عودته ، وعتب عليه خلق المشاكل لقومه ، بما فعله مع عمرو بن معديكرب .

فقال عنترة : ومتى كان عنترة مثار المشاكل لقومه ؟ ! هلا سألتنى عما فعلته فى سفرتى هذه ، وما كسبته لك ولقومك ؟ !

فقال قيس مخفياً وشاية الربيع : ولمَ لا يكون هذا العبث طرقاً لباب المعرفة والوقوف على ما فعلت؟ !

فقال عنتره : سواء أكان هذا أم غيره ، فقد أصبح عمرو بن معد يكرب أصدق خليل ، وخير ظهير ؛ وقص عليه ما كان .

فقال قيس : ذلك ما عودتنا إياه ، من كشف الهم ، وكسب الغنم ، والتمكين لنا فى الأرض . وتهلل وجه قيس بشراً ، وبالغ فى الحفاوة بعنترة،

وإعزازه إياه ؛ فكان لهذا وقعه الأليم فى نفس الربيع وشيعته .

وفى صبيحة اليوم التالى خرج قيس إلى الصيد ، فالتقى بواقد وجماعته ، فسأله : من أنت؟ ومن أنزلكم فى أرضنا ؟ ! فقال : أنا واقد من بنى كنانة ، وأنزلنا فى أرضكم هذه عنترة بن شداد ، ثم قص عليه قصة نزولهم فى تلك المنازل ، فسر قيس وأثنى على عنترة وحسن صنيعه ، فكان هذا أيضاً مثار ألم وغيظ فى نفس الربيع ومن كان على مذهبه فى الحقد على عنترة .

وعز على الربيع ألا يتمكن من إيغار صدر قيس على عنترة ، متخذاً من أفعاله هذه برهاناً له وحجة ، فقال : إن للحكم حرمته ، وللحاكم احترامه ، ومهما يكن من أمر عنترة وعمله ، فلا يجوز له أن يتخطى الملك ، ويغفل شأنه فى أمر يملكه ، دون أحد من رعيته ، وإن إنزاله أناساً لا يعرفهم بأرضك ، من غير إذن ولا علم منك ، لدليل على صحة ما ينقل الناس عنه ، فقد روى عنه قوله : أنا الذى جعلت قيساً على الملك ، وإن شئت خلعته ووليت أحد أخوته .

ولما كان للحكم جاذبية ، تجعل الحاكم يصدق كل شىء يمسه ، وخاصة ممن يؤهلهم استعدادهم لأن يقولوا ويفعلوا — لما كان الأمر كذلك — اطمأن إلى قول الربيع ، ناسياً حسده عنترة ، وعلاقته الحاقدة به ، واكفهر وجهه غضباً عليه ، وكراهية له .

لم يسكت أسيد عم الملك قيس على هذه الوشاية الدنيئة ، لإفساد ما بين قيس وعنترة ، فقال : حتى أنت يا ربيع ، تنزل بك الخصومة إلى الحضيض ، وتستسيغ من أجلها الكذب على من لا يكذب ، والإساءة إلى من شمل بفضله الأبعد والأقرب ؟ !

فقال الربيع : لم يكن قولى كما تصف ، ولكنه الغيرة على الملك ، ومخافة أن يقال فيه : ليس لقيس قيمة فى نظر عنترة ، فقد أنزل أناساً فى أرضه ، دون علمه وإذنه ، وذلك غاية السخرية من عبد أمه أمة .

فسحر قيساً حديث الربيع ، وتألم من عنترة ، وأضمر له البغض والضغينة .

* * *

وزار عنترة بنى كنانة الذين أنزلهم بجواره ، وكان معه عروة ومقرى الوحوش وهدية من النوق والأغنام ، وكانت تلك الزيارة ليطمئن عليهم ، ففرحوا بهم وأكرموهم ، وانتظمت بهم المجالس يتحدثون ويسمرون ، وتناول الحديث مقابلة واقد للملك قيس ، وأنه سأله عن نفسه وقومه ، ومن أنزلهم بأرضه ، وأنه أثنى على عنترة .

فقال عنترة : إن قلقتم فى هذا المكان أنزلتكم منزلاً آخر أطيب جواء ، وأوسع رخاء ، يؤمنكم فيه سيفى ، وتعصمكم من كل ضر حمايتى . فشكروا له هذا العرف الشامل شكراً جزيلاً .

ثم تفقد الجالسين فقال : ما لى لا أرى مالك بن قادم ، الذى أضافنا يوم بلائنا فى الصحراء .

فقال واقد : خرج فى طلب مهر لابنتى نوار ، التى وعدته أن أزوجه إياها عقب عودته ، نزولا على وصية أبيه .

فقال عنترة : لو أخبرتمونى قبل خروجه لأمددته بما يحتاج إليه من مال ونعم ، وكفيته شر السفر ومتاعبه ، ولكن سبق السيف العذل ، ونرجو له عودة سالمة رابحة ، وبعد ثلاثة أيام أقاموها فى ضيافة بنى كنانة انقلبوا إلى أهليهم ، وقلب عنترة مشغول بمالك وأمره .

وكانت نوار بنت واقد هذه ذات جمال رائع ، شغلت به حديث المجالس ، حتى بلغ حصن بن حذيفة ، فعلق فؤاده بها ، وعقد سعادة حياته على الزواج منها . وبلغ سناناً أمره وأمرها ، وأن شقوته فى الحيلولة بينه وبينها ، فقال سنان : لا تكن أذناً ، فإن الخبر يزيد بالنقل ، أو ينقص بالقصد ، ومزاولة العمل على غير خبرة ، جهل وغصة ، والرأى أن تقف أنت نفسك على حقيقة هذا الأمر ، فتزور أرض قومها صائداً قانصاً ، وهناك تعرف مبلغهم من الحسب والنسب ، فإن كانوا ذوى نسب عريق مددنا أيدينا إليهم ، ولا يضيرنا بعد هذا أن يكونوا فقراء ، فإن الفقر لا يحط من قدر العربى الحسيب النسيب . فنزل حصن على هذا الرأى واستحسنه .

وركب حصن وسنان وعشرة من الفرسان إلى منازل كنانة ، ولما أشفوا عليها شغل حصن الفرسان بالصيد فى الفدافد والبيد ، وواصل هو وسنان سيرهما ، فرأوا فى مرج قريب من منازل بنى كنانة جماعة من البنات يمرحن ويلعبن ، متخذات من جمالهن معصماً وحجاباً ، فتقدم سنان إليهن قائلاً :

يا بنات العرب : من أنتن ؟ ومن أنزلكن فى هذه الديار ؟

فقالت إحداهن : نحن من بنى كنانة ، وأنزلنا فى هذا المكان عنترة ،

فقال سنان : ومن هذه الفتاة التى تأمر فيكن ؟

فقالت : هذه نوار بنت واقد بن سريع قائدنا ورئيسنا .

ثم رجع وأخبر حصناً وقال له : أبشر ببلوغ المنى ، وهيا بنا إلى الديار . فرجعا بفرسانهما وإن حصناً ليلتاع غراماً وشوقاً .

وفى الصباح أرسل سنان إلى واقد كتاباً يدعوه وكبار قومه إلى مأدبة خاصة عنده ، فلبوا دعوته ، وفى أثناء سيرهم قال واقد لصحبه : عجبت لهذه الدعوة الفاجئة !! فهل منكم من يعرف سرها ؟ أو الدافع إليها ؟

فقالوا : لا نعرف شيئاً ، فإذا كنت تعرف شيئاً فاذكره .

فقال واقد : يبدو لى أن هذه الدعوة لخطبة ابنتى إلى أحد كبرائهم وساداتهم ، وأنتم تعلمون أنى جعلتها لابن أخى مالك ، وهو الآن فى سفره لإحضار مهرها ، فما الرأى إذا خطبها أحد من سادات بنى بدر ؟

فقال بشر بن المنهال : وهل هناك شك فى إجابة مثل هذه الخطبة !!

إنها باب اليمن والغنى والسيادة ، وظل ساقه الله إليك يقيك حرور الفاقة والمذلة ، وماذا أنت منتظر من ابن أخيك ؟ ! ! إن أكثر ما يعود به إلينا ناقة أو جمل ، وكلاهما لا يطعمان من جوع ، ولا يغنيان من حاجة .

واستقبلهم حصن بن حذيفة وسنان وكبار قومهما أجمل استقبال وأكرمه ، وبينما هم يتحدثون ويسمرون قال سنان لواقد وجماعته : لقد علمتم مصير بنى عبس ، وكيف أصابهم عدوانهم على الناس بالذلة والمسكنة ، وكيف طردناهم من ديارهم ، ولم ينزلهم فى أرضهم هذه إلا الملك النعمان ، وأنهم الآن فى حمايتنا ورعايتنا ، وقد أنكر قيس على عنترة صنيعه فيكم ، وإنزالكم أرضه ، على غير علم منه ، وربما حمله الغضب من تصرف عنترة على طردكم ، فأراد ملكنا حصن أن يحميكم من بنى عبس ، ويسبغ عليكم فضله ونعمته ، ويعقد بينكم وبينه بأسباب من المصاهرة ، حتى تكون قوتكم من قوته ، وسطوتكم من سطوته ، وهو يعرض عليكم الآن رغبته فى أن يتزوج بنتك نوار ، فانظر فى أمرك ماذا ترى ؟

فقال واقد : ذلك خير ساقه الله إلينا ، ولن أتلقاه إلا بالشكر والرضا ، ومن يكون أسعد منى إذا أصبحت صهراً للأمير حصن ، وأصبح بنو فزارة لى خير ظهير ؟ ! فسر الأمير بذلك ، وأبرما عقد الزواج ، واتفقا على موعد الزفاف ، ثم رجع واقد وصحبه إلى ديارهم . ومعه مهر ابنته ؛ خمسمائة ناقة ، وكثير من الأموال والهدايا الفاخرة .

ولما وصل إلى قومه أخبرهم بزواج ابنته من حصن ، ووزع عليهم كثيراً من الأموال والهدايا ، فشملهم الفرح العظيم ، وأقبلوا إليه يهنئون .
أما نوار فكان وقع الخبر عليها أليماً ، إذ كانت تحب ابن عمها مالك بن قادم ، وزادها غمًّا على غم أنها ظنت موت ابن عمها لطول غيبته .
وأما مالك فقد عاد بعد طول غيبة ، ومعه بعض الجمال والنعم ، ففرحت به أمه فرحاً عظيماً ، إذ كانت قد يئست من عودته ، ولبست ثياب الحداد ، وجعلت تبكيه كل حين .

وقد وجد مالك فتوراً فى لقاء عمه له ، وانصرافاً عنه ، وإهمالاً لشأنه ، فسأل أمه عن هذه الحال الجديدة ، التى لم يكن يعهدها فى عمه ، فأخبرته ما تم فى أمر ابنته نوار ، وما أفاد به من غنى وثراء ، والمال فى الدنيا أكبر فتنة ، يضل صاحبه عن الهدى ، إلا من عصم ربك ، وقليل ما هم ، وجدير بك يا بنى أن تسلو هذه الفتاة ، وتريح نفسك من التعلق بها ، فقد خرج أمرها من يدك ، وأصبح زواجك منها أقرب إلى المستحيل .
فقال مالك : ما دمت لا أعرف المستحيل فلن أسلوها ، وسأذهب إلى عنترة ، واضعاً مسألتى بين يديه ، فكم نصر المظلوم ، وأعان على نوائب الزمان .

وبات ليلة واحدة ، ثم كان فى طريقه إلى عنترة ، وهناك أكرم لقاءه ، وسأله عن حاله فى غيبته ، وبعد أوبته ؛ فقص مالك عليه

قصته ، ورجاه أن يعينه على الزواج من بنت عمه .
فقال عنترة : إذا خلت الجماعة ممن يقطع يد الغادر الباغى ، ويعين المظلوم حتى يرد إليه حقه — عاشت معيشة ضوارى الوحوش ، يأكل القوى منها الضعيف . وسترى أننا زوجناك منها . وجعلنا المعتدين على حقك فيها سلفاً ومثلاً للآخرين . فاذهب إلى منزلك ، وأخبرنى بيوم زفافها ، حتى أطلع عليهم وهم فى الطريق ، وآخذها منهم قسراً ، ولا تجعل لمسألتها أثراً فى نفسك ، فهى من الآن زوجك ؛ ثم ودعه خير وداع .
وأرسل عنترة فى طلب عروة ومقرى الوحوش ، وجماعة الفرسان الذين يعتمد عليهم فى النائبات ، وعرض عليهم أمر مالك بن قادم من أوله إلى آخره ، فقال أبوه شداد : تلك مسألة فى رأيى أعقد من ذنب الضب ، ورأيك فيها يكاد يكون غامضاً ، لا يخلو من تبعة وعدوان على حق ، يحول بينه وبين صاحبه . فأنت تعلم ما أصاب واقدا والد الفتاة نوار من عسر ويسر ، وفقر وغنى ، وإن نقضك ما أبرمه من زواج ابنته لحصن ابن حذيفة امتداد لأيام عسره وفقره ، وربما اعتذر عن تركه ابن أخيه ، ورجوعه عن تزويجه ابنته بأنه انتظره حتى يئس من عودته ، وأيقن بموته ، ومن الظلم أن يترك ابنته معلقة أكثر من تلك المدة الطويلة التى انتظرها ، وبذلك لا يكون قد غدر بابن أخيه وظلمه ، وبعد هذا قد يقول الناس : إن أخذك للفتاة بغى وإثارة للفتنة ، وإفساد بين بنى فزارة وعبس .

فقال عنترة : لقد كنت أنا وأنتم فى ضيافة والد الفتاة ، وذكر لنا أنه زوجها من ابن أخيه ، الذى ساح فى الأرض يبتغى مهرها ، ولم يمض على مغادرته منزله سنة أو أكثر وحق الفتى لا يزال قائماً ، فما الذى حمل والدها على أن يغدر به ؟ وينقض عهداً بينه وبينه ؟ إنه حب المال والطمع فى الغنى ، وإنى لا أقر أن يجعل الوالد بنته عرضاً من عروض التجارة ، تباع لمن يعطى ثمناً أغلى ، ضارباً بالكفاية الخلقية والإنسانية ، وعلاقة القلب بالقلب ، وألفة الروح بالروح — ضارباً بكل أولئك — عرض الحائط ، ولهذا فإنى رادّ إلى الفتى زوجه ، وإن أرقت فى سبيل ذلك دماء العرب ، وبعد هذا إن أراد أبوها غنى فسأيسره له ، وإن أراد حماية فله ألا يطمئن سيفى فى قرابه حتى يبيد عدوه ، ويجعله آمناً فى عقر داره .

فقال الحاضرون : ونحن معك يا عنترة فيما رأيت .

وكان عنترة قد وصى مالكاً أن يكظم غيظه ، ويظهر الولاء لعمه ، فإذا قرب يوم الزفاف جاء إليه ومعه أمه ، ليقوم عنترة بتنفيذ ما وعد به ، من أخذ العروس قسراً ، وهى فى طريقها إلى زوجها .

فلما قرب موعد الزفاف ذهب مالك ومعه أمه ، وأخبره أن يوم كذا يوم الزفاف .

وأرسل حصن الهودج والعبيد والجوارى ، ودعا قيساً وكبار قومه إلى هذا اليوم المشهود ، وأراد قيس أن يصحب عنترة ومن يحب من فرسانه فأبى

وقال : لايزال شبحى مبغضاً فى نفس حصن وسنان وغيرهما ، وأخشى أن يكون حضورى سبب فتنة ، ومثار قتال بينك وبينهم ؛ فخدع قيس بما قال عنترة ، وذهب إلى حصن هو وجماعته فى أفخر ثياب لهم .

وجمع عنترة إليه فرسانه ورجاله وقال : لقد علمتم أن رأينا استقر على معونة مالك ورد فتاته إليه ، كما تعلمون أن قيساً وأعيان قومه سيكونون فى حفل زفاف هذه الفتاة إلى حصن بن حذيفة ، وطبيعى أن كل عمل عدائى يوجه إلى حصن فى هذا الحفل على يد أحد من بنى عبس يخجل قيساً ويحزنه ، وربما جره إلى الغضب عليه والانتقام منه ، وإن كنت أنا لا أحفل بهذا الغضب إلا من ناحية واحدة ؛ وهى أنه سيكون سبباً فى أن أرسل بلائى على قومى ، وليكون لنا مخرج من ذلك كله أرى أن ننزح عن ديارنا بأموالنا وعيالنا ونسائنا مع العبيد والغلمان وبعض من رجال الحامية ، ونذهب نحن إلى طريق العروس نرتقبها ، فإذا ما أخذناها ، فررنا بها ولحقنا بعيالنا ، ثم نزلنا جميعاً فى بعض الروابى ، وهناك نزف نوار إلى ابن عمها مالك بن قادم ، وبهذا نكون قد هيأنا لقيس فرصة عذر مقبول ، وله إذ ذاك أن يقول لحصن : إن هذا العبد شق عصا طاعتى ، ونشز عن أمرى ، وهجر ديارى ، ولم يبق له فيها مال ولا أحد من الأهل والعيال .

فرضى رجال عنترة عن هذا الرأى واطمأنوا إليه .

وخرج شيبوب فى مائة من الأبطال ، ومعه الأهل والعيال ، والعبيد

والمال ، حتى نزلوا بأرض تسمى مسارح الظباء ، وهى غنية بالأشجار والماء ، أما عنترة فقد خرج فى صحبه وفرسانه حتى التقوا بقافلة العروس فى وسط الطريق وكان سنان يقدم القافلة ، ومن خلفه الهوادج والنوق والرجال ومظاهر الفرح تبدو مختلفة الألوان ، من ألعاب بالسيوف والرماح ، وغناء ورقص ، وتصفيق هنا وهناك ، والعروس فى هودجها الحريرى المرصع بالدر والجوهر ، وهى منكمشة تسح عيناها الدموع حزناً على ابن عمها . فأمر عنترة عشرة من فرسانه الأقوياء أن يهجموا على هودج العروس ، ويفرشوا الأرض بجثث من حولها من العبيد ، ويسوقوا ناقتها إلى حيث شيبوب فى مسارح الظباء ؛ أما عنترة وبقية فرسانه فقد تخلفوا للقاء الفرسان من الأعداء .

وسيقت العروس ، بعد أن شرد من حولها من العبيد قتلاً وهرباً ، إلى حيث شيبوب فى مسارح الظباء .

وأعمل عنترة وفرسانه سيوفهم فى بقية فرسان حصن بن حذيفة ، وظن سنان بادئ الأمر أنها غارة لثلة من العرب ، خرجوا يطلبون القوت والمال ، فنادى فى فرسانه أن يحملوا عليهم حملة لا تبقى أحداً ، ولكنه لما أبصر عنترة بن شداد انتفض انتفاضة رعب وفزع ، وأيقن أنه مهزوم مغلوب ، فلجأ إلى اللين وقال لعنترة : ما بالكم يا بنى الأعمام ، تنهبون أموال حصن ، وتسبون زوجه وإماءه ، وساداتكم فى وليمته ؟ ! !

فرسان عنترة يهاجمون مركب العرس

فقال عنترة : لم أظلم بهذا أحداً ، ولكنى أردع عدواناً وقع ؛ فقد زوج واقد بنته نوار إلى ابن أخيه مالك ، وأشهدنا على ذلك ، ولما أنزلته فى ديارى ، وجعلته فى جوارى ، وخرج فى طلب صداق ابنة عمه ، جئتم أنتم فحملتم والدها على نقض ما أبرم ، ونكث ما عقد ، وفى ذلك عدوان على الفتى ، ومساس بكرامتى ، فجئت لأحبط بسيفى هذا بغى الباغى ، وأرد الحق إلى صاحبه ، فدع ما تقول من فضول القول ، فالحق واضح .

فلما رأى سنان إصرار عنترة على رأيه ، وإن أشعل فى سبيله حرباً شعواء ، وأنه لا طاقة له بلقائه ، لوى عنان فرسه قائلاً : ما دمت مصراً على رأيك ، فأنت وشأنك . وهرب إلى حيث ينجو بنفسه ، وتبعه الفرسان مولين أدبارهم .

أما واقد والد نوار فقد مثل بين يدى عنترة قائلاً : ما زوجت ابنتى حصناً إلا مكرهاً ، فقد أنذرنى عذاباً وتشريداً وفتكاً بالأنفس إن لم أزوجه ابنتى ، وكان ابن أخى قد طالت غيبته ، فيئست من رجوعه ، فلم أجد مفراً من الاستجابة لحصن وكان ما علمت . فقبل عنترة عذره ، وأمره أن يلحق هو وأهله بالهودج إلى مسارح الظباء .

* * *

فر سنان قاصداً دياره ، فوجد حصناً فى انتظار زوجه ، ومعه المدعوون من سادات بنى عبس ، فقال : لقد طلع علينا عنترة ورجاله ،

وأسروا العروس ونهبوا الأموال ، وقتلوا العبيد ، وشردوا الفرسان .

فوجم حصن وغلا دمه فى جسمه غيظاً وألماً ، وصار قيس بن زهير فى غمرة من الخجل والحيرة والغم ، فالتفت إلى الربيع بن زياد قائلاً : ما رأيك فى هذا العبد الذى يخلق لنا المتاعب حيناً بعد حين ؟!

ووجد الربيع فرصة للتحامل على عنترة شفاء لحقده فقال : أرى أن نعجل بالرجوع إلى الديار ، ونقبض على عنترة وشيعته ، الذين يعتمد عليهم فى معونته ، وتتخذهم عبيداً أو تنفيهم من أرضك ، وتعلن للعرب منهم براءتك ، وتحرض ذوى الترات على الانتقام منهم ، وحينئذ يصبح عنترة أمام أمرين لا ثالث لهما ، إما أن يصر على عناده ، فهو لا محالة مقتول ، وإما أن يعود إليك تائباً مستغفراً ، فتنظمه فى سلك العبيد الذين ليس لهم إلا الخدمة ورعى الأغنام والنعم .

فقال قيس : ذلك خير ما نفعل .

ثم التفت إلى حصن وخفف عنه ألمه ، ووعده أن ينتقم له بتنفيذ ما أشار به الربيع ، ثم استأذن على الفور وانقلب هو ومن معه إلى الديار مغيظاً محنقاً ، فلما وصل إليها وجدها خالية من عنترة وأهله وأعوانه .

فقال الربيع : لقد توقع ما أنت فاعل به وبمن يشايعه ، فهرب بهم إلى حيث لا نعرف لهم منزلاً ولا مقاماً ، وأرى أن ترسل إلى حصن رسولاً يبلغه هذه الحال ، وتشير عليه أن يطلب عنترة ورجاله وأبطاله حيث يجدهم ،

وينفذ فيهم ما يريد ، فقد نفضت يديك منه ، وأهدرت دمه ، وجعلته حلاً لمن يريده .

ولما بلغ حصناً ذلك اشتد به الكرب ، واختلط عليه الأمر ، فالتفت إلى سنان قائلاً : ماذا أنت فاعل ؟ ! ولا بد لى من الفتاة والفتك بعنترة ؟

فقال سنان : لقد ترك هذا العبد فى صدرى من الغيظ ما لا تحتمله الجبال ، وقد رأيته فى دون الخمسمائة فارس ، ويغلب على ظنى أنه سار بهم إلى مسارح الظباء ، وأرى أن نسير إليه فى الصباح بعدتنا وعديدنا ، فنصب عليه جام غضبنا وانتقامنا ، ثم نعود بالفتاة منصورين .

وفى الصباح غص الوادى بفرسان يقدمهم حصن وسنان ، وأخذوا سمتهم إلى مسارح الظباء ، وكانوا ستة آلاف من كل بطل صنديد ، وفارس ذى قوة وأيد شديد .

كان عنترة قد توقع مجىء حصن بجنوده ، فأعد لذلك عدته ، ووصى رجاله أن يلقوهم بقلوب من حديد ، وضرب يزلزل أفئدتهم ، وتطيش له أحلامهم ، حتى ينكصوا على أعقابهم فى ذلة وهزيمة .

ولما جاء الصباح كان وادى الظباء يموج بالأعداء ، فتلقاهم عنترة وجنوده بضرب هو الموت أو أشد وقعاً ، وتصدع بنيانهم ، وتفرق شملهم ، وفر حصن وفرسانه إلى الديار خائبين مهزومين .

ولما اطمأن عنترة ومن معه فى مسارح الظباء عرض واقد والد نوار أن

يزفها إلى ابن أخيه مالك ، فقال عنترة : ليس هذا محل زواج وزفاف ، فإن جماعة سنان لا تقعد عن طلبنا ، وسنرحل إلى مكان بعيد فى القفار ، حتى إذا ما لحقنا بجنده سقيتهم هناك كئوس الردى .

فقال شيبوب : إن خير مكان ترحل إليه وتقيم فيه جبال غزية ، لارتفاعها وخصب نواحيها ، ولأنها بجوار دريد بن الصمة ، سيد بنى جشم وهوازن ، ومتى علم نفورك من قيس فرح واستبشر ، وكان لك خير نصير ، وربما عرض عليك أن تنزل فى دياره ، فلا يطمع فينا طامع لقوتنا وقوة أعواننا .

فقال عنترة : لا بأس فى ذلك ، ويحسن الآن أن يتزوج مالك بفتاته ، ثم يرحل بنو كنانة إلى أوطانهم ، على أن يكونوا فى حمايتى . وتم ذلك وودعهم إلى دارهم مشيعين بكل إكرام .

ونشط عنترة وجماعته فى الرحيل ، حتى دخلوا أرض بنى قحطان ، فرأوا خياماً مضروبة وخيولاً كثيرة ، وغنى ممدود الظل ، وأناساً تدل حالهم على ما لهم من قوة وبأس ، فقال عنترة : من هؤلاء القوم ؟

فقال شيبوب : هؤلاء بنو الجريش حلفاء بنى عامر ، وسيدهم معاوية ابن يشكر ، وهم قوم كرام ؛ فأمر عنترة أن ينزلوا فى هذا المكان ، وفى سرعة وخفة نصبت خيامهم ، ثم سرحت أنعامهم هنا وهناك ، فتقدم إليهم سعيد بن صفوان أحد غلمان بنى الجريش وقال : من أنتم ؟ ! ومن أنزلكم فى أرضنا ؟ !

فأجابه عبيد عنترة : نحن من بنى عبس المعروفين بالكرم والشجاعة وحاميتنا عنترة بن شداد ، صاحب المعارك الحاسمة ، والأيدى المبسوطة .

فأسرع عبيد بنى الجريش إلى ساداتهم وأعلموهم نزول بنى عبس فى أرضهم ، ففرحوا وخفوا إلى لقائهم ، وأسبغوا عليهم كرمهم ، وتحالفوا على حفظ العهود ، وأقام بنو عبس فى هذه الأرض حيناً من الزمان .

١١

علم قيس أن عنترة نزل بأرض بنى الجريش ، فغضب غضباً أليماً وندم على أن فرط فى جنب عنترة ، وأما الربيع بن زياد ، ومن هم على شاكلته فى بغض عنترة ، فقد فرحوا فرحاً عظيما ، وطلب عمارة من أخيه الربيع أن يعمل على طرد عنترة من تلك الديار ، فقال : لك هذا فى أقرب فرصة . ثم نهض إلى الكيد الأثيم ، فأعد هدية ثمينة من مال كثير وعنبر ومسك وبعث به رسولا إلى الشاعر الذائع الصيت النابغة الذبيانى ومعها الكتاب الآتى :

أبعث إليك هذه الهدية ، لتكون بينى وبينك وشيجة محبة وأخوة ، ولى عندك حاجة أفضل شىء فيها لديك ، أن تقضيها للربيع بن زياد أخيك ، ذلك أن تكتب رسالة على لسان عبلة إلى معاوية بن يشكر تذكر

فيها حبها له ، وشغفها به ، وترجو منه أن يشفيها من آلام الغرام والهوى ، بقربه منها ، وتزين الرسالة ببعض أبيات من رائع شعرك ، وسحر بيانك .

ولما أخذ النابغة الهدية وقرأ الرسالة تهلل وجهه سروراً ، وقال للرسول : اذهب إلى صاحبك الربيع ، وبلغه عظيم شكرى ، وقبولى رجاءه ، وأنى رهين إشارته .

ولما انصرف الرسول نهض النابغة إلى قرطاسه ، وكتب على لسان عبلة رسالة إلى معاوية بن يشكر ، ثم كلف بعض خدمه أن يضعها بالقرب من قبة عبلة بحيث لا يراه أحد ثم يعود .

والتقط تلك الرسالة بعد وضعها بجوار خباء عبلة رجل من بنى الجريش وكان أمياً ، وأراد القدر أن يذهب بها إلى عنترة ، ليقرأها له ويطلعه على ما فيها ، وما انتهى عنترة من قراءتها حتى اربد وجهه غضباً وغيرة ، فسل سيفه وضرب الرجل ضربة كانت القاضية .

اضطرب الحى وماج ، وشاعت قتلة عنترة بين المضارب والأحياء ، فركب معاوية فى جنده ، وجاء عنترة يسأله عما فعله ، فوجده بين فرسان شداد ، قد امتشقوا سيوفهم مرتقبين أمراً بقطع الأعناق ، فقال له : أين ما عاهدتنا عليه من الأمان والولاء ؟ لقد صدق من وصمكم بالغدر والخيانة

فأجابه عنترة :

أبشر يا معاوية بالإعدام العاجل ، واعلم بأنه لا مرد لقضاء الله فيك .
أتروم عبلة وقد ناداك الناعيان شيبك وكبرك ؟ إنك لفي ضلال مبين .
وضرب معاوية بسيفه ضربة أردته قتيلا ، ودارت لها رحى حرب عنيفة ،
طارت فيها الرءوس ، وتمزقت الأوصال ، وسالت الدماء ، وانعقد الغبار
سحباً ، وكان عنترة يهدر فيهم هدير السيل ، ويرسل الموت على بنى الجريش
حمماً حتى فرقهم فى البيداء ، وغنموا أموالهم ، وسبوا نساءهم ، وقروا فى
منازلهم غالبين .

أما بنو الجريش فقد جمعوا جموعهم بعد هذه الهزيمة الشنعاء ، وذهبوا
ليلا إلى عامر بن الطفيل ، وقصوا عليه ما فعله عنترة بهم ، فوعدهم أن
يكتب إليه برد أموالهم ونسائهم غداً ، وفى الصباح أخذوا كتاب عامر إلى
عنترة ، فلما قرأه قال لهم : قد عفونا عنكم ، وفككنا رقابكم ، ورددنا لكم
أموالكم ، وآمناكم فى دياركم ، فخذوها سالمين ، وقروا فى منازلكم آمنين
غير خائفين . وبعد ثلاثة أيام من هذه المعركة ارتحل عنترة وقومه
قاصدين جبال غزية .

ولما أشرفوا على جبال يقظان ، وأرادوا أن يأخذوا راحتهم عندها ،
سمعوا جلبة وهرجاً ، ورأوا غباراً كالسحب فى الجواء ، فأرسل أخاه شيبوباً
يكشف له عن هذه الحال ، وما لبث غير ساعة حتى جاءه بالخبر اليقين ،
فقال : إن دريد بن الصمة قد أحيط به من كل جانب ، وليس معه إلا

نفر قليل ، فإما أدركته وإما تمزق .

نهض عنترة نهضة كريمة ، وجعل بعضاً من رجاله على الأهل والعيال ،
وصحب الباقين من فرسانه ، وكان فى لمح البصر عند دريد ، وخاض هو
ورجاله غمار تلك الحرب ، وانقضوا على أعداء دريد انقضاض الليل ،
وجعل عنترة يكشف الغمة بسيفه عن دريد نفسه ، حتى مزق من كانوا
يحيطون به من الأعداء ، وما هى إلا ساعة من نهار حتى فر الأعداء ناجين
بأنفسهم ، بعد أن قتل كثير منهم .

والتقى دريد بعنترة فسلم عليه ، وقبله بين عينيه ، وقال :

إلى أين أنت ذاهب ؟ !

فقال عنترة : ربما ذهبت أنا وعيالى — وأشار إليهم — إلى جبال غزية .

فقال دريد : كأنك غضبت على بنى عبس ؟

فقال عنترة : نعم .

فقال دريد : ورب البيت الحرام لتقيمن فى أرضنا ، حتى يكون لنا
شرف جوارك ، ونطعم الاعتزاز بك .

فقال عنترة : إن نزولى عندك يجر عليك متاعب كثيرة .

فقال دريد : ومن رفع السماء إن لم تستجب لرجائى فإنى آخذ بزمام
ناقة عبلة ، وقائدها إلى ديارى ، وأما صهرى ذو الخمار فقد ارتحل إلى قومه
منذ أيام . فلما عرف عنترة ما يرمى إليه ، من أن المشاكل معدومة

لغياب صهره أجاب دعوته ، وباتوا على أهنأ حال ؛ وحدثه دريد بما أصابه فى تلك الحادثة .

كان لدريد غلام يدعى دثار بن روق ، كفله ورباه على الشجاعة والبطولة ، حتى أصبح ناراً تلفح وجه كل من يلقاه ، فذاع صيته ، وعمت هيبته ، وكان مغرماً بالجياد ، يحب اقتناءها ، ويجيد ركوبها ، والقتال بها ؛ فبلغه أن عند بنى الريان جواداً ، هو فى الحسن والقوة فريد ، وهو لسيدهم حماد بن حسان ، فعزم أن يطلبه ، ويحصل عليه بأية حيلة ، فطلى وجهه بصبغ أسود ، ومزق ثيابه ، ونكش شعره ، حتى أصبح كأنه عبد طريد شريد ، ثم توجه نحو منازل بنى الريان ، وجعل يجوس خلالها ، متفقداً الجواد ، حتى كان أمام قبة حسان ، وكان لحسان هذا بنت تسمى سعاد ، تختال فى قد أهيف ، وجمال فاتن ، فلما رأته حسبته شيطاناً ، فانقلبت إلى أمها خائفة مذعورة ، وحدثتها بما رأت ، مستعيذة من هذا الشبح المفزع ؛ ولكن الفتاة قد ملأت قلب الغلام حبّاً لها ، وغراماً بها .

ولما أقبل الليل ، وسكن من فى الحى جدّ فى البحث عن الجواد حتى عثر به وسرقه ، وعاد إلى دياره وكأنه قد ترك قلبه فى منزل الفتاة يحرسها حتى يتم خطبتها له ، والزواج منها ، مهما يبلغ مهرها .

وأشار عليه أقرانه أن يستشير فى سعاد هذه دريد بن الصمة ، ويرجو

منه أن يتولى هو خطبتها له من أبيها ، فقابل دريداً وأفضى إليه بما فى نفسه ، فوعده دريد أن يبلغه فى سعاد ما يريد .

أرسل دريد رجلا من عقلاء بنى هوازن إلى حماد بن حسان ، يخطب ابنته سعاد لغلامه دثار ، فجعل يصف حسن قوامه ، وجراءة قلبه ، وتبريزه فى المعارك ، حتى رغب فيه حماد ورضى به زوجاً لابنته ، وقوى تلك الرغبة أن وعده الرسول برد جواده ، وإغلاء مهر ابنته .

دخل حماد على زوجه ، وحدثها بما جرى بين رسول دريد وبينه ، وكانت سعاد على مسمع مما يقول : فتقدمت إلى أبيها فى حزن أليم وقالت : أليس هو الذى تنكر فى زى عبد طريد ، وسرق الجواد ؟ !

فقال حماد : بلى !

فقالت سعاد : لقد رأيته ففزعت من شكله ، فكيف تصدق قول القائل فيه دون أن تراه ؟! أبلغتُ عندك من الإهمال المبلغ الذى لا يكلفك رؤية العشير الذى ستمتزج حياتى بحياته ؟ !

فقال لها أبوها : هونى عليك ، فلست بمفرط فيك ، ولن أزوجك منه حتى تنظريه ، وتطمئنى إليه .

ثم نهض إلى رسول دريد وقال : أقرئ صاحبك منى السلام ، وبلغه أنى أجبت طلبه ، على أن يحضر دثار إلينا زائراً فى جمع من الأعيان ، حتى تراه سعاد ، فإن صدقت رؤيتها إياه ما يقال عنه فالوعد نافذ ، وإلا

فعذرنا قائم ، إذ من حق الفتاة أن تشاركنا فى اختيار الزوج وقبوله .

عاد الرسول إلى دريد، وأنهى إليه ما حدث ، فاطمأن دريد إلى ذلك، وزاد إعجابه بسعاد ، وصحة رأيها ، وسيطرة عقلها على عواطفها ، ونزاهة مشاعرها .

وفى اليوم التالى كان دريد ودثار وجمع من الأعيان فى حضرة حماد بن حسان، ومعهم غنائم نهبوها من جماعة من بنى الحارث فى طريقهم بعد أن قتلوا منهم كثيرين وفر باقيهم .

وكان دثار من أحسن الفتيان شكلا ، فلما رأته سعاد رضيت به زوجاً ، وزفت إليه فى فرح عظيم وولائم فاخرة .

وبعد سبعة أيام رجع دريد ومن معه من الأعيان ، فلقيه فى الطريق جموع حاشدة من بنى الحارث ، كانوا قد كمنوا له وارتقبوا عودته ، يثأرون لأنفسهم ، وكانت المعركة حامية ، والطامة على دريد جاثية ، حتى أدركه عنترة ، ونفس عنه كربته ، وشرد بنى الحارث من حوله .

وبعد هذا النصر المبين ذهب عنترة ودريد ورجالهما وعيالهما إلى منازل دريد ،ولما أشرفوا على الديار ــ وكانوا على مقربة من جبال غزية ــ اختار دريد لعنترة وادياً كثير العشب والكلأ ، غزير المياه ، واسع المرعى ونزلوا فيه ، وأباح لعنترة ورجاله نواحيه حفاوة وإكراماً، وأجرى نسيم الفرح بهم نديًّا شهيًّا، ولزم دريد صحبته، فكان لا يأكل ولا يشرب ولا يطرب

إلا وهو معه ، ولا يزيده طول المقام إلا إكراماً له ، وحفاوة به ؛ وكان لدريد ميدان تأتيه الفرسان من كل صوب ، فيقضون الساعات فى مبارزات ودية ، للتسلية واللهو ، وإظهار البراعة فى الفروسية والنزال ، فكان يخرج بعنترة وأبطاله ، وأبطال من قومه إلى هذا الميدان ، يتسلون بما يقع بين الفرسان فيه ، وحين يستعر لهب الهجير يرجعون ، وذلك ليشرح صدر عنترة ، ويرغبه فى البقاء معه .

وأتى فرسان بنى هوازن وجشم ، وسلموا على عنترة ، وسمع بوجوده الفرسان المجاورون فأقبلوا ليروا عنترة هذا الذى ملأ أسماعهم بمهارته فى الحرب ، وبلاغة لسانه فى البيان والشعر .

وكان من ألعاب الفرسان فى الميدان ، أن يركزوا رمحاً فى الأرض ويثبتوا فى أعلاه حلقة ، ثم يتباروا فى إصابة تلك الحلقة ، فكل من أنفذ رمحه فيها سبع مرات أخذ رماح جميع الفرسان ، وكان دريد يحكم بينهم بما يراه عنترة .

وذات يوم برز فارس من فرسان بنى سليم إلى ميدان المراهنة والمباراة، وكان غلاماً شديد السواد ، قوى العضلات ، مبسوط القامة ، معتدل القوام ، حلو المنطق ، مشرق الابتسامة ، عليه غلالة رومية ، وعمامة من الخز ، أرخى عذبتها على كتفه ، ممتطياً جواداً عربيًّا كريماً ، متقلداً سيفه ، وفى يده رمحه ، وجال فى الميدان ، وعمد إلى الحلقة فأنفذ

فيها رمحه ، وأخذ رماح الفرسان ، ولكنه ردها إليهم قائلا : يا بنى عمى ؛ إنكم تعرفون أنى عبد ، وأنتم الموالى ، وما كان لى أن آخذ منكم رماحكم ، ولا أن أفخر عليكم ، وأزهو بفروسيتى بينكم ، وما خرجت إلى الميدان طمعاً فى الرهان ، ولكنى رغبت فى التسلية واللهو مع الفرسان ، ثم نزل ساحة المبارزة ، فما بارزه فارس إلا غلبه ، حتى أقر له جميع الفرسان بمهارته وتفوقه ، ولما أراد الانصراف وقف أمام عنترة وقال :

معذرة يا أبا الفرسان ، وما كان لى أن أبارز أحداً فى حضرتك ، فأنت فارس دهرك ، ووحيد عصرك ، وما صنع السيف البتار إلا لكفك ، وما كانت بلاغة القول إلا لك ، وقد عطرت الأقطار بذكرك ، وخلدت فى كل ناحية مآثرك ، وأرجو منك أن تصحب أخاك الضعيف إلى خيامه وتتفضل بتناول شىء من طعامه ، فإن الكريم لا يأبى طعام الكريم ، فقال عنترة : شكراً لك على هذا الثناء الجميل ، وأنت أجدر الناس به وأولى ، أما الذهاب إلى منزلك فقد قبلناه ، فأسرع أنت إليه فنحن على أثرك .

وسار عنترة ودريد فى عدد قليل من الأبطال إلى منزل هذا الغلام ، ولما كان الغلام قد حل فى نفس عنترة محل الإعجاب وحسن التقدير سأل دريداً عنه فقال : هذا خفاف بن ندبة وأمه أمة ، ألحقناه بنسبنا ، وشب فينا فارساً لا يسامى، يبغضه العباس بن مرداس من بنى سليم ويحقد

عليه ، ولا يفتأ يهجوه ويذمه فى كل مجلس على نحو ما يفعل الربيع بن زياد معك ، ولكن الغلام لا يعبأ به ولا يلقاه إلا بالصبر الجميل . فتبسم عنترة ضاحكاً متعجباً وقال : عجبت لهذا الغلام أن يكون مثلى نشأة وشجاعة ، فقال دريد : ليس فى الدنيا من يساميك شجاعة وخلقاً وبلاغة .

ولبثوا فى ضيافة هذا الغلام ثلاثة أيام ، فرأوا فيها من الكرم المبسوط ، واللقاء الجميل ما حبب إليهم هذا الغلام وجعل له فى نفوسهم منزلة سامية .

وفى صباح اليوم الرابع عادوا إلى الديار ، فوجد دريد صهره ذا الخمار حاضراً ، فقال : ما وراءك يا ذا الخمار ؟

فقال ذو الخمار : جئت طالباً مبارزة عنترة ، فإما غلبته فنسخت خزى هزيمتى الماضية أمامه ، وإما غلبنى فأقررت له بالفضل والمهارة .

فقال دريد : وكيف تطمع أن تبارز فارساً فى ضيافتى مهما يكن من شأنك ؟ ! إنى لن أسمح لك بما تريد ، لأن عنترة فى ديارى ، ولأنك مغلوب لا محالة ، وربما بقر بطنك بسيفه ، فعدمت حياتك ، وخلفت الخزى لأهلك وقومك ، فاطلب ديارك وإلا مت ميتة شنيعة ! !

فرجع ذو الخمار إلى أهله من فوره .

وكان خفاف بن ندبة قد أخذ منه الغيظ من العباس بن مرداس مأخذه ، فدخل على أمه ذات يوم غضبان أسفاً ، فقالت له أمه : ما عكر

صفوك ، وعهدى بك أنك صبور تحتمل ما لا تحتمله الجبال الراسيات؟!

فقال خفاف : إنى أفكر فى أمر هذا الرجل الذى يدعى العباس بن مرداس ، إذ لا يفتأ يهجونى فى كل مكان ، وأخشى أن يؤوّل صبرى عنه ، وإغفالى شأنه ، إلى ضعف منى ، وعجز عن الحيلة فيه ، وقد جال فى ميدان المناجزة متحدياً مزهواً فانطلقت إليه لأبطل تحديه ، فصاح فى وجهى قائلا : ارجع يابن السوداء ، منتنة الإبطين فما طلبت إلا مبارزة السادة النبلاء ، لامبارزة العبيد أولاد الإماء ، فهممت بقتله ، وكدت أرمى بسيفى رأسه ، لولا عنترة بن شداد ، فإنه حسم الموقف ولكنى ما زلت غاضباً !

فقالت له أمه : سأدلك على أمر يغيظه ، ويجعل الدنيا ظلاماً فى وجهه؛ ذلك أنه فى بنى النضير رجل يقال له همام ، وله بنت فاقت أترابها حسناً وجمالا والعباس يحبها حبًّا جمًّا ، ويتمنى أن يتزوجها ، ولكنه — لتكبره ، وجفاء طبعه — أمسك عن طلبها لنفسه متوقعاً أن يعرضها عليه أبوها ، ويتوسل إليه أن يتزوجها ، مخالفاً فى ذلك شريعة العرب . فإن أنت ذهبت إلى أبيها وخطبتها لنفسك ، قبل أبوها تلك الخطبة ، وفجعت أنت العباس فى فتاته ، وذلك أشد وقعاً على نفسه من تجرع كئوس الحمام .

فقال خفاف : وذلك ما سيكون غداً إن شاء الله .

ذهب خفاف بن ندبة ، ومعه جماعة من أعيان قومه ، إلى همام هذا فى بنى النضير ، وتحدث إليه فى أمر ابنته ، وأنه يريدها زوجاً له ، على أن يكون صداقها ما يشاء أبوها من الأموال والنعم ، فسر همام ورضى عن هذا الزواج .

وعلم العباس بذلك فأسرع إلى همام ووجد جلسة الخطبة لا تزال قائمة لم ينفرط عقدها ، فلما حيا وجلس التفت إلى خفاف بن ندبة وقال : مالك يابن الأمة تجعل نفسك من سادات العرب وأنت هجين ألحقت فى أهل دريد ، كما يلحق خلف الراكب القدح الفرد ؟ !

فتمايل خفاف سخرية وعجباً وقال : اكشف اللثام للقوم عما تريد من هذا القول .

فقال العباس : ستعلم مما تسمع الآن ماذا أريد ؛ ثم التفت إلى والد الفتاة وقال : قد خطب ابنتك لنفسه خفاف بن ندبة ، وقد جئتك أخطبها لنفسى ، وأنت تعلم أنى أعرق أصلا ، وأكرم حسباً ، وأسمى قدراً ، وأنفذ نهياً وأمراً ، ولن أفكر يوماً فى أن أقرن نفسى به فإن السيف يزرى بقدره إذا قيل : هذا السيف خير من العصا .

فوجم الحاضرون ، وعلت وجوههم غبرة من ألم عميق ، فقال خفاف فى غيظ : أعرض يا عباس عن هذه الفتاة ، فقد سبقك إليها من هو أعظم كفاية ، وأسمى شرفاً لها منك .

فقال العباس : ومن هذا ؟ !

فقال : خفاف بن ندبة ، الغيث المدرار ، والأسد المغوار ، من أفسدت عظمته عقلك ، وبلبلت فكرك ، فأصبحت تهرف بما لا تعرف ، وتهذى بما لا تعى .

فقال العباس : ومن أنت يا عديم النسب ، حتى تقرن نفسك بسادات العرب ، وتدفعك وقاحتك إلى أن تطلب كرائم الحرائر أزواجاً ، وأولى لك أن تبحث عن أمة من الإماء .

فقال خفاف : «من أبطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه» ، وأكرم الناس أكثرهم مآثر فيهم ، وأقومهم خلقاً وعملا ، فدع عنك الاعتزاز بالنسب ، فإنه حجة العاجز ، ومتكأ العليل . ثم جعلت الخصومة تشتد وتقوى ، حتى امتطى كل منهما جواده ، واستل سيفه ، واستعد للقتال . وطار الخبر إلى الأحياء ، فنهض الفرسان وجاءوا بخيلهم وأسلحتهم ، ليقطعوا بسيوفهم هذا الشقاق القائم ، وانقسموا فى هذا الأمر قسمين ، لكل خصم من الخصمين قسمه ، يشايعه ويؤازره ، وبدأت المعركة ، فانتقل خبرها فى الحال إلى دريد وعنترة ، فنفرا مسرعين إليها ، وأوقفا رحاها ؛ وهمّ دريد أن يقبض على خفاف والعباس ، ولكن عنترة أشار عليه أن يريح نفسه ، ويترك أمرهما له ، يقضى فيه بالحق الذى لا شطط فيه ، فسر دريد وأسلم إليه زمامه .

وقف عنترة وقال : أيها العرب الكرام ، لقد بان للناس فضلكم ، وما أنتم عليه من شجاعة القلب ، وبسطة اليد ، وعلو الهمة ، وبالغ الحكمة ، وصدق النظر ، وقد وقع بينكم ما جعل سيدكم دريداً يفزع إليكم ، ليدرأ شره عنكم ، وقد رجوت منه أن أكون حكماً فيه ، فإن رضيتمونى حكمت بين خفاف والعباس ، وأزلت ما بينهما من شقاق وباس .

فقالوا : نعم دريد ، ونعم الحكم !

فقال عنترة : ولكم شكرى فانصرفوا اليوم وائتونى غداً ، لتشهدوا وتسمعوا الحكم بينهما .

وفى ذلك الغد حضر خفاف والعباس ، وجمهرة من الفرسان والأعيان مجلس الحكم ، فسأل عنترة كلا من المختصمين عما وقع له ، فسرد كل منهما ما عنده ، وعدوان خصمه عليه ، فالتفت إلى خفاف وقال : لا ضير عليك أن عيرك بالسواد ما دمت مبرأ من العيوب الخلقية ، فقد عيرونى بالسواد مثلك ، فما أحزننى منهم ذلك .

والتفت إلى العباس وقال : وما كان لك أن تفتخر بحسبك ونسبك ، وتجعل منهما مساغاً لغطرستك وكبريائك ، وسخريتك من غيرك ، فالسيوف والرماح ، وكرم السجية ، وترفع النفس عن الدنية — مناط الفخر وسمو المنزلة ، وخفاف كما تعلم رجل جرىء القلب طاهر الذيل ، مبسوط اليد ، عالى الهمة ، عف اللسان ، وينبغى أن ينال حسن تقديرك ويكون

فى منأى عن جورك . ثم التفت وقال : وأنت يا والد الفتاة ، أى هذين الفارسين تختاره زوجاً لها ، حتى تزفها إليه ؟

فأجاب : هما لدى سواء ، ولكن لى ثأراً عند ملك من ملوك اليمن يقال له المتعنجر سيد بنى قضاعة ، فأيهما أخذ بثأرى ورد علىّ كرامتى ، زوجته ابنتى ، وإلا فليس له عندى حاجة ، وبنات العرب كثير .

فهز الحاضرون رءوسهم استحساناً وقالوا : مرحى ، مرحى ، ذلك وزن بالقسطاس المستقيم ، فمن طلب الحرة الكريمة ، ركب فى سبيلها كل خطورة ، ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب ، ولا بد دون الشهد من إبر النحل .

ونهض الفارسان وقالا : لا حرج فى أنفسنا مما قضى والد الفتاة ، ولكن دريداً قال : لا أرى فى ذلك سداد رأى ، ورشاد حكم .

وقال عنترة : وما ترى فيه من خطل يفسده ؟

فقال دريد : إن بين الفارسين عداوة مستحكمة ، فإن ذهبا إلى المتعنجر معاً وقع بينهما فى طريقهما من القتال ما جئنا الآن لنحول بينهما وبينه ، وإن ذهب أحدهما أولا وانتصر ، كان له حسب هذا الحكم حق الزواج بالفتاة ، وبعد هذا يكون الفارس الآخر قد حرم ذلك الحق دون تقصير منه أو عجز أو جريرة ، وأرى أن نقرع بينهما ، فمن كانت له القرعة ذهب إلى المتعنجر قبل أخيه ، فإن جاء فائزاً فهذا حظه العظيم ،

وسعده المقدور ، وإلا ذهب صاحبه ، وجرب حظه ، على أننى أرى أن هذا الأمر كله نصب ولعب وتعجيز ، ويغلب على ظنى أن قهر المتعنجر أبعد منالا من الثريا ، فهو جبار عنيد ، وأخته غمرة الموت أو تزيد ، وتحت يمينه ما لا يحصى من الجنود ، وأشير على العباس أن يعدل عن الزواج من هذه الفتاة ، وغيرها فى بيوتات العرب كثير .

فقال العباس : أرى الإعراض عن هذه الفتاة حينئذ مذلة ، ولن أقبل المذلة وإن بدت لى المنايا فى صور الرجال .

فقال دريد : إذن ، لا مناص من القرعة .

ونطقت القرعة بذهاب العباس أولا ثلاث مرات متواليات ، فظن الناس أنه قد ظفر بمراده ، لما يعرفونه من قوته وشديد بأسه .

١٢

جمع العباس إليه من استطاع جمعه من أهله وفرسانه ، وولى وجهه بهم شطر ذى الحمار فى ديار بنى حمير ، وقص عليه شأنه وقال : ما جئتك إلا لأستعين بك ، كما يستعين خفاف بعنترة ، وإنك عندى خير من ألف واحد كعنترة ، وأمرى بين يديك ، وقد جعلت اعتمادى فيه بعد الله عليك .

فقال ذو الخمار : إن عنترة وإن كبت كل فارس ، وسد منافذ السبل فى وجه كل منافس ، فإن ذلك لا يجعل ذوى النفوس الطماحة يقعدون مع القاعدين ، وإنى سائر معك إلى ديار بنى قضاعة ، وجاعل لك عاليها سافلها ، لتفوز بفتاتك ، وتنتصر على خصمك ومنافسك .

أخذ العباس وذو الخمار ومن اختاره من الفرسان عدتهم من سلاح وزاد وماء ، وجعلوا يسيرون ويقطعون الوعر والسهل أحد عشر يوماً ، لا يذوقون فيها طعم الراحة ، حتى أصبحوا مرهقين لا يقدرون على السير ، فألقوا بأنفسهم عند غروب الشمس على الأرض ، وإن كلا منهم ليكاد يلفظ نفسه ، من شدة ما أصابه ، فغرقوا فى الحال فى نوم عميق ، لا يشعرون فيه بشىء مما يجرى حولهم .

وفى الصباح انتبهوا وتفقدوا خيلهم فلم يروها ، فطلبوها حواليهم هنا وهناك فما وجدوها ، فقال سبيع : واكرباه ! واذلاه ! أخذت منا الخيل ، وحاق بنا العار والبلاء والويل !

وقال رائدهم : تلك فعلة منافس عاذل حاسد ، ولو كانت فعلة عدو لا يعرفنا لجز منا الرقاب ونحن نيام ، وساق خيلنا حاملة أموالنا إلى حيث يشاء ، ويغلب على ظنى أن خفاف بن ندبة أو ثلة من شيعته تابعوا المسير من خلفنا ، حتى فقدنا بالنوم حسنا ، فسرقوا الخيول ، ليحولوا بيننا وبين ما جئنا له من الفوز العظيم .

فعولوا على المشى فى مناكب البيد ، مرتقبين الفناء العاجل فيها حيناً بعد حين .

ومشوا مدة يترجحون بين اليأس والرجاء ، وبين القلق والاطمئنان ، حتى أشرفوا على غدير عامر بالخيام والفرسان ، فاطمأنت قلوبهم فى صدورهم ، وكشف عنهم ضرهم وخوفهم .

وأسرع إليهم ثلة من هؤلاء المقيمين على خيولهم ، وسألوهم عن أنفسهم وما يبتغون ، فقالوا : نحن من بنى سليم ، خرجنا نطلب الزاد لنمير أهلنا ، فأكلت البيداء خيلنا ، وشوى الظمأ أكبادنا ، ونحن الآن أحوج ما نكون إلى أن تيسروا لنا إطفاء نار العطش فينا بقليل من الماء .

كان هؤلاء الفرسان المقيمون فى هذا الغدير فرسان المتغنجر ، الذى يطلبه العباس ، وكان المتغنجر وأخته غمرة فيهم ، خرجوا من ديارهم ابتغاء القوت والكسب .

استشار الفرسان المتغنجر فى أمرهم ، فقال : اسقوهم الماء وأطعموهم ، وأوثقوهم بالحبال ، ثم أحضروهم إلينا فى الصباح ، لنسألهم عن حالهم وما يريدون .

ولما جاءوا بهم فى الصباح إلى غمرة وأخيها ، وكانت سمراء مشربة بحمرة ، ذات قد معتدل كأنه الرمح ، تشع أسارير وجهها ، وتبرق عيناها شجاعة وقوة ، فقالت : من أنتم ؟ ! وما رمى بكم إلى هذه المنازل ؟ !

فقالوا : نحن من صعاليك العرب المهملين فى أرض دريد بن الصمة ، دفعتنا الحاجة إلى الخروج نطلب قوتاً ، فابتلعتنا الفيافى المقفرة ، فأهلكت خيلنا ، وابتلينا فيها بعطش كاد يقضى علينا لولا أن قيضكم الله لنا .

فقالت غمرة : لا مفر لكم من أيدينا حتى يقدم كل منكم إلينا فدية من نوق وجمال ، وأما سيدكم دريد فسنحاسبه على مجيئكم ديارنا حساباً عسيراً .

فقال العباس : أما الفدية فمن الحق أن نأتى بها ، وأما حساب دريد بجريرتنا فتجن عليه ، لأنه لا يشعر بنا فى دياره ، ولا يحس وجودنا عنده ، لأننا همل فى أرضه ، ولا يعلم شيئاً عن سيرنا ومقامنا .

فقال المثعنجر : ربما كنتم فرساناً مشهورين ، وجعلتم الآن أنفسكم صعاليك مهملين ، لتنجوا من قيد الأسر الذى وقعتم فيه ، فابعثوا إلى أهليكم ليفتدوا كلامنكم بمائة ناقة ، وإلا كنتم من الهالكين .

اختار العباس من بينهم رسولا ، وأوصاه أن يخبر أهله بما جرى لهم ، وأن يسرعوا إلى افتدائهم وتخليصهم ، وضرب المثعنجر للرسول أجلا مسمى إن استأخر عنه أهلك أصحابه ، ثم أمر أن يذهب فرسانه بالأسرى إلى معتقلهم .

وأشارت غمرة على أخيها أن يرجعوا إلى الديار ، قانعين بما سيأتيهم من

الفداء ، وكان أبوهما شيخاً كبيراً ، ولا يزال حيّاً ، ففند رأيهما فى الأسرى وقال : ستجدان أنهم من فرسان دريد ، وأن رسولهم سيستصرخه لنجدتهم ، وعما قريب ترون دياركم قد أحاط بها دريد وجنوده ، يؤازره صهره سبيع ابن الحارث الملقب بذى الخمار ، الذى يمزق بسيفه الجموع مهما يكن عديدها ، وأرى أن ترحلوا بجنودكم إلى حيث كنتم ، حتى تلتقوا بدريد هناك ، فى بعد عن الأوطان والعيال .

فضحكت غمرة وقالت : إن صح ما قلت فذلك ما أبغيه ، وإن جاءوا فسترى سيفى فى المعركة دلال المنايا ، وسأسقى دريداً وصهره كئوس الردى .

وكانت غمرة هذه قد رزق بها أبوها من أم سوداء ، فلما جاءت على شكلها وهيئتها نفر منها وأنكرها ، ولما شبت على الفروسية والشجاعة ، وأفادته فى معارك حامية ، قربها منه ، وأصبحت أعز شىء عنده .

ولما نام العبيد المكلفون حراسة الأسرى ، تمطى ذو الخمار فى قيده وأغلاله فقطعها ، وقام إلى أصحابه فأطلقهم من قيودهم ، وتقلدوا سيوف الحرس ، وامتطوا خيولهم ، وقتلوا منهم من قتلوا ، وفرت باقيتهم صائحة مستصرخة . أما ذو الخمار وصحبه فقد أرخوا لخيلهم الأعنة ، وكانوا بعد قليل فى غياهب الصحراء .

أما غمرة وأخوها وبنو قضاعة ، فقد هبوا على صوت العبيد وصراخهم ، وأسرعوا إلى خيلهم وسيوفهم ليقتفوا آثار الأسرى الهاربين ، فلحقوا بهم ،

وطوقوهم من كل جانب ، فلم يجد الأسرى مفراً من الدفاع عن أنفسهم ، وخوض غمرات القتال ، وشب لهيب الحرب بين الفريقين ، فأبلى فيها العباس وذو الخمار وغمرة وأخوها بلاء حسناً ، واستمرت نارها مندلعة ، حتى غلب العباس وصحبه ، وسيقوا أسرى كما كانوا .

أخبر رسول العباس دريد بن الصمة ، وكان عنترة وخفاف وبعض أصحابه حاضرين ، فقال عنترة : سأذهب فى مائة فارس ، لأخلصهم من معتقلهم ، بعد أن أشرد أعداءهم ؛ وصمم دريد على أن يخرج إليهم فى خمسمائة فارس ، لتصب على بنى قضاعة العذاب ألواناً ، حتى يحترموا الصغير من رجالنا قبل الكبير ، وانفض مجلسهم ليأخذوا أهبتهم إلى الرحيل .

١٣

علم خفاف بن ندبة أن العباس أخذ معه ذا الخمار ، فخاف أن يتغلب على بنى قضاعة ، وتكون الفتاة من نصيبه ، فذهب إلى عنترة وعرض عليه مخاوفه ، فقال عنترة : إن غاب أحد منا عن الأحياء مدة غيبة العباس ، وكان حظه الهزيمة ، اتهمنا العرب فيه ، وكنا مهبط عتابهم ،

ومحط ذمهم ، ولكنى أستطيع معونتك بعد رجوع العباس فاشلا خائباً .

فشكره خفاف ، ولكن شيبوباً عظم عليه أن يسخر العباس من خفاف ، ويظلمه فى فتاته التى خطبها لنفسه ، ثم يتقاعد عن معونته ، فقال له : لا تشغل نفسك بهذا الأمر ، فسأجعل العباس يعود بخفى حنين . فدعا له خفاف باليمن والتوفيق ، وحيا وانصرف .

وقال عنترة لأخيه شيبوب : كيف تعد خفافاً بالمعونة والكيد للعباس ، وتجر علينا بذلك لوماً لا نحتمله ؟ !

فقال شيبوب : لقد كرهت من العباس بخسه فضل خفاف ، واستكباره عليه ، واحتقاره إياه ، فأحببت أن أسد منافذ النصر فى وجهه ، حتى يعلم أن الناس سواسية ، لا فضل لأحد على غيره إلا بالعمل الصالح ، وكريم الطبع ، وسأفعل ما أفعل بحيث لا يعلمه أحد من البشر ، فقال عنترة : وكيف ذلك ؟

فقال شيبوب : سأتبعهم أنا وأخى جرير ، حتى إذا ما أجهدهم السفر ، وحطوا الرحال ، وغرقوا فى النوم سرقنا خيلهم ، وفررنا بها فى ظلام الليل ، ثم أطلقناها فى الفيافى كأنها شاردة من تلقاء نفسها ، ورجعنا إلى الديار وليس معنا شىء . وحينئذ لا يستطيعون بدونها قتالا ، ولا يرجون نصراً . وذلك ما فعله شيبوب وأخوه جرير .

نفر دريد فى جنود عدتهم ثلاثمائة من بنى هوازن ومثلهم من بنى عبس

وعدنان ، قاصدين بنى قضاعة ، فلما قربوا من ديارهم ، نبههم شيبوب أن يأخذوا حذرهم ، مخافة أن يكون بنو قضاعة قد كمنوا فى الطريق ، وملكوا علينا الغدران والمنابع .

فقال دريد : نعم ما رأيت ، وأن ترد الماء بماء أكيس .

وقد صدق شيبوب فى تقديره ، فقد خرج خمسة آلاف من بنى قضاعة وعلى رأسهم ملكهم فائز ، وارتقبوا لقاء دريد وجيشه فى مكان بعيد عن ديارهم ، وهناك يرسلون عليهم كالطير الأبابيل ، ترميهم بالسيوف والرماح ، حتى يهزموهم ويقضوا عليهم .

التقى الجيشان وقامت بينهم حرب عوان ، ومالبثت غير ساعة ، حتى انتهت بهزيمة بنى قضاعة ، وتوزعوا بين هارب وأسير وقتيل ، وأمر دريد أن يأتوا بالأسرى إليه ، ليسألهم عن العباس وجماعته ، ولما وقفوا بين يديه قص المثعنجر عليه ما جرى لهم ، وقال : إنهم الآن عند أختى غمرة مأسورين ، ثم أمر دريد بانصرافهم مقيدين فى الأصفاد . وباتوا على الغدران يستروحون ، وتفقد عنترة عمراً أخا عبلة فوجده من الغائبين ، فحزن من أجل ذلك حزناً شديداً ، لأن والد عمرو لا يرضى فى ابنه أهل الحجاز أجمعين ، فقال شيبوب : هون عليك ؛ فإنى أذهب إلى الأعداء متنكراً ، حتى ألتقى بعمرو ومن معه من الأسرى ، فأفك قيودهم ، وأيسر لهم سبل الهرب من أعدائهم .

فسر عنترة وقال : دمت يا شيبوب ودام جهادك الكريم ! فمشى شيبوب يخوض فى الظلام ، وقعد أخوه عنترة ينتظره ، وأما الملك فائز فإنه عاد إلى دياره مهزوماً .

وكان والد غمرة قد رجع إلى الديار فى جنده المهزومين ، فلما دنا منها وجد القوم محيطين بساحة وفيها فارسان يتبارزان فخشى أن تكون قد قامت بينهم فتنة وخصومة ، فسأل عن ذلك فزعاً جزعاً ، فقيل له إن غمرة ابنتك وذو الخمار يتبارزان ، لأنها كانت قد وعدته أن تتركه فى أسره يستروح ويستجم على أن تعطيه من عندها فرساً وعدة قتال لتبارزه ، فإن غلبها أطلقته وأقرت بفضله ، وإن غلبته جزت ناصيته وأعتقته ، ولبثا يتبارزان يوماً كاملا ، وعجب كل منهما من شجاعة الآخر ، حتى رغب فى أن يصادقه ويؤاخيه ، فأمرها أبوها أن تكف عن المبارزة ، وقص عليها ما حل بجيشه ، وما أصابهم من هزيمة منكرة ، فعجبت لذلك وقالت : لقد كنت يا أبى فى خمسة آلاف ، وفيكم أخى المثعنجر يلقى وحده ألف فارس ، فكيف هزمتم ؟ ! فقال أبوها : لقد كان أخوك هذا أول من أسر هو ومن معه من الرجال ، وقد انقلبنا إليكم خائبين خاسرين كما ترين .

فقالت : سأريك من صدق الجهاد ما تشيب له الأطفال ، سأجعل جثث الأعداء بسيفى هذا فراشاً مبسوطاً على الأرض .

فقال أبوها : إن من بينهم عبداً أسود لو لقى وحده فرسان العرب أجمعين لصرعهم بسيفه .

فقالت : وإن كان فوق ما تصف .

وقال ذو الخمار : دعى عنك هذا فإنه عنترة بن شداد ، الذى لن يغلبه أحد ، والذى وقعت أنا أسيراً بين يديه ،وجعل يقص عليها قدوم عنترة إلى دريد ، وقصة العباس وخفاف وفتاتهما ، فأصرت غمرة على عزمها ، وأمرت أن يعاد ذو الخمار إلى قيود أسره فى ديارها.

فقال لها ذو الخمار : أستحلفك ألا تحبسينى فى الأغلال والقيود ، وخذى على العهد والميثاق أن أكون معك من أفراد جندك ،ودعينى أشهد قتالك لعنترة ، فإن وقع فى أسرك فاحكمى فىّ وفيه بما تشائين ، وإن أسرك عنترة خرجت لمبارزته ، فإن غلبنى فالحكم فينا له ، وإن غلبته أمرت دريداً أن يطلق سراحك وسراح أخيك ومن معه فى الأسر ، وعقدنا بينكم وبيننا موثقاً من الصداقة ، ورجعتم إلى منازلكم سالمين .

فرضيت غمرة بما عرضه عليها ذو الخمار ، وأخذت عليه ميثاقاً ألا يجنح للغدر والخيانة ، ونقض ما عاهدها عليه .

وغادرت غمرة ديارها ، فى تسعة آلاف من جندها ، لقتال دريد وعنترة وجنودهما ، وكانت عند أعدائها فى إقبال الليل ، وقامت هى نفسها بتنظيم جيشها ، استعداداً للقتال ، وأقسم عنترة على دريد أن يأوى إلى

خيمته ، ويترك له أمر الجيش هذه الليلة حتى يسفر الصباح .

وفى موهن الليل ركب عنترة جواده ، وقصد به إلى بنى قضاعة ، ليتعرف موقفهم ، ويقف على شأنهم ، ليقرر خطة الهجوم عليهم ، لينتهى من التغلب عليهم فى أقصر وقت ، وأيسر جهد ، وأقل مشقة ؛ وهناك التقى بغمرة ، فحسبها فارساً له خطره فى بنى قضاعة ، فهجم عليها ، وتلقته هى أيضاً بجرأة عظيمة ، وبدأت بينهما المبارزة ، واشتد الكر والفر ، حتى ابتلعهما الفضاء ، وهما فى مبارزتهما العنيفة ، ومضى الليل كله ، وإن أحدهما لم يظفر بالآخر ، ولكن فنى منهما الجهد ، وحل بخيلهما التعب والكلال .

وفى الصباح لم يجد دريد ريح عنترة فى جنده ، فحزن حزناً أليماً ، وخشى أن يطول غياب عنترة ، فلا يقدر جنده على الأعداء ، ويكون حظه من تلك الغزوة الهزيمة والبوار ، ولكنه استبسل وبرز فى الجند بطلا مجاهداً ، وبث فيهم روح الحماسة ، وأمرهم أن يقصدوا بسيوفهم ورماحهم مواطن الأعلام ، ليقتلوا رؤساء الأعداء ، ويشلوا قيادة جيشهم فيصيبهم الاضطراب وانحلال الهزيمة ، وفقد الوحدة الجامعة ، وحينئذ ينصر دريد نصراً عزيزاً ، ثم يوجه اهتمامه إلى البحث عن عنترة والوقوف على مصيره ، والسعى الدائب لرجوعه من غيبته .

وكذلك فقد رئيس بنى قضاعة ابنته غمرة ، فخشى أن يفت فقدها

فى عضد جنده ، فأعلمهم أنها تزاول معهم القتال على حسب خططها السرية ، لتعجل لهم النصر المبين .

ومضى النهار فى قتال عنيف ، سالت فيه دماء الجندين ، وبعثرت جثث الفرسان من الفريقين ، وتصدى ذو الخمار لقتال بنى عبس ، وكان فرحه عظيما لغيبة غمرة ، لأنه كان يخشى أن تصرفه عن قتالهم ، وتتولى هى نفسها الفتك بهم ، فأظهر ذو الخمار من البراعة والشجاعة ما لفت مقرى الوحوش إليه ، وظنه غمرة ، لجرأته وشدة بأسه ، فانفرد بقتاله ، وشغله عن الخوض فى بنى عبس ، ولولا ذلك لأوقع فيهم النكال فى غيبة عنترة ، ولما انقضى النهار أوى كل منهما إلى ناحية ، لاستئناف القتال بعد أن يمضى الليل كله .

وفى غلس الظلام ركب دريد فى جماعة من أبطاله الأشداء ، ودار بهم من حول جنده يبغى حراستهم ، ودفع ما عسى أن يكون من شر عنهم ، فسمع صياحاً فى جيش الأعداء ، فقال لمن معه : لا بد أن يكون قد حدث فى بنى قضاعة حدث ، فإما جاءهم مدد ففرحوا بلقائه ، وإما أنزل بهم عنترة نازلة أليمة جعلتهم يصيحون ويموجون ، ومن الحزم أن نقترب منهم حتى نقف على هذا الهرج والصياح .

ولما دنوا من بنى قضاعة سمعوا أحدهم يقول : ليس لنا إلا أن نهجم على أعدائنا فى هذا الليل ، وما دمنا قد أسرنا عنترة ، فلن نجد فيهم من

يستطيع لقاءنا ، أو يجرؤ على قتالنا .

فاغتم دريد وقال : لهفى عليك يا عنترة ! ! فما أسرت عن ضعف أو خور ، ولكن هناك نوازل فوق طاقة البشر ، يصيب بها القدر من يشاء ، لحكمة يغيب عنا سرها ، ولن أسكت عن أسرك ، حتى تعود إلى قومك عزيزاً مكرماً ، ثم عاد إلى جيشه يتعثر فى أذيال حزنه ، شاعراً بثقل الوطأة وعظم المصيبة .

قضت المبارزة بين غمرة وعنترة أن يبعدا فى الصحراء ، وبلغ الكفاح بينهما أشده ، حتى جال فى خاطر عنترة العجب من هذا الفارس واقتداره — وكان لا يزال جاهلا أن غمرة هى التى تبارزه — وأنه لم يعرف فى بنى قضاعة بالشجاعة إلا غمرة ، فظن أنه حامية بنى قضاعة ، وإن لم يسمع عنه قبل هذه المبارزة ، أما غمرة فقد عرفت عنترة من أول وهلة ، وكان بودها أن تكون مبارزتها إياه على مشهد من الناس ، ولكن الكفاح قضى عليهما أن يمعنا بعداً فى القفار .

ولما أجهدها عنترة ، وأحست خطورة مصيرها ، طلبت إليه أن يرجىء المبارزة إلى صباح الغد ، حتى تستريح الخيل وتغتذى ، ونأخذ نحن جمامنا ، ونكون على مشهد من ساداتنا وكبرائنا .

فقال عنترة : ذلك أمر بعيد ، ولن أعود حتى أظفر بما أريد ، أو تنضج منى الجلود .

فقالت غمرة : ما دمت مصراً على رأيك ، فامنحنى هدنة لأريح الجواد ، وأطفئ لهيب العطش فى الأحشاء والأكباد ، وأخفف منى الثياب والحديد ، ثم أعود إليك لنستأنف الكفاح والمبارزة .

فقال عنترة : وقد أجبتك أيها الفارس إلى طلبتك .

ثم أبعد عنترة عنها وأراح جواده وسقاه ، ثم امتطاه وعاد مرتقباً خصمه.

ورجعت غمرة ثابتة الجنان ، فى ثياب يمانية قصيرة الأكمام ، وكشفت عن رأسها ، وأرسلت شعرها على منكبيها ، فلما رآها عنترة على تلك الحال ، علم أنها غمرة فقال : أنت غمرة ابنة فائز وأخت المثعنجر ؟ ! !

فقالت غمرة : نعم ، أنا غمرة ، ذات القوة والصولة ، ولولا شدة الحر ما نزعت عنى الثياب ، ولا كشفت عن صدرى ورأسى ، ومن تكون على شاكلتى تبارز الفرسان فى ظلام الليل ، لا يضيرها أن ينظر جسمها أوزاع الناس وهملهم ، وقد عولت على ألا تفر من يدى سالماً ، أو تتركنى فى هذه البطحاء ، أسيرة الموت والفناء .

ثم صاولها عنترة وداورها حتى تعبت ولاح لها وجه الخطر والعطب ، وكان قد ترجلا وتركا جواديهما ، فصاحت قائلة : رفقاً بأسيرتك ، فأنت معروف بالغيرة وحماية الحريم ؟ ! !

فقال عنترة : أنت التى مزقت بيديك حجاب صونك ، فبرزت

غمرة تحادث عنترة وقد كشفت رأسها وأرسلت شعرها على منكبيها

لملاقاة الرجال ، فحق عليك ما تنكرين من الفعال .

ثم رجت غمرة عنترة أن يطلق سراحها ، ويمن عليها بحريتها ، واستثارت نخوته ، فأطلقها فركبت جوادها ، وسارت فى طريقها عائدة إلى قومها .

وكان والد غمرة قد أرسل ألف فارس يبحثون عنها ، ويكونون فى معونتها ، فلما التقت بهم وهى راجعة ، سألوها عن حالها فقالت : كنت فى عراك أنا وعنترة بن شداد حامية بنى عبس ، ولما أرهقنا الكفاح ، وطالت غيبتنا ، اصطلحنا على العودة ، حتى لا يشغل أهلونا بفقدنا ، ولو علمت مجيئكم لبقيت معه حتى تعينونى على أسره أو قتله ، وأرى الآن أن نتبعه ، وعسى أن ندركه ، فننفذ فيه مشيئتنا . ثم امتطت جواداً غير جوادها ، وسارت بالفرسان ، تطلب عنترة .

أما عنترة فقد مر فى أثناء سيره بغدير ، فنزل إليه ، ونزع عنه عدة حربه وثيابه ، وغاص فى الماء ليستحم ، فأطبقت عليه غمرة وجنودها ، وألبسوه ثيابه ، وأخذوه أسيراً ، ثم قالت للفرسان : كيف تركتم أبى ؟ فقالوا : فى معركة دامية وحرب طاحنة .

فقالت غمرة : الآن وجب أن أدركه من فورى .

ثم اختارت عشرة أبطال ، وأمرتهم أن يسيروا بعنترة إلى الديار ، وهناك يشدون وثاقه ، ويجعلونه فى حراسة العبيد ، وسارت هى وبقية

الفرسان إلى أبيها ، فأخبرته بما تم فى أمر عنترة ، فقال لها أبوها : حسبتك أحضرته معك لنعلن قتله ، حتى نضعف الروح المعنوية فى الجنود الأعداء ، فقد أذاقونا العذاب ألواناً ، على قلة عديدهم وكثرة عددنا ، وقد ساعدنا ذو الخمار ، وكان يدافع عنا بجرأة وقوة . فقالت غمرة : وماذا يفعل ذو الخمار مع قوم من الجبارين ؟ سأريك غداً فيهم ما يثلج صدرك ، وتقر به عينك ، وأين ذو الخمار الآن ؟

فقال أبوها : رأيته اليوم مستميتاً فى القتال معنا ، وبعد ذلك غاب عن ناظرى ، ولا أدرى أين هو الآن ؟

فقالت غمرة : من الرأى أن يوثق أسيراً ، فإنه إن بقى طليقاً ، ورأى حماه دريداً فى ضيق منا ، انضم إلى صفوفه ، وقاتل معه ، ويكون علينا ، بعد أن كان لنا .

فقال أبوها : أبعث إليه الآن وأضعه فى القيود .

فقالت غمرة : يغلب على ظنى أنه تركنا وفر إلى دريد .

ولما بحثوا عنه لم يجدوه فغضب والدها ، فقالت : لا تأس ولا تحزن ، وغداً سأرده إليك أسيراً .

* * *

شاع فى الجند أسر عنترة ، وأنه موثق فى ديار بنى قضاعة ، فقال ذو الخمار : لقد أضعفت قومى ، وأظهرت عليهم أعداءهم ، دون أن

أشفى غلتى من عنترة ، ويجدر بى الآن أن أركب جوادى وأفر إلى بنى قضاعة ، حيث ألتقى هناك بعنترة فأقتله وأطلق سراح العباس ومن معه ، والقوم فى شغل عنى بالقتال والحرب ، ثم أعود إلى دريد ، أكون عوناً له على الفتك ببنى قضاعة فتكاً ذريعاً ، ثم ركب جواده ، وقصد ديار بنى قضاعة لتنفيذ ما دار بخلده ، وعزم عليه .

ودارت رحى القتال بين دريد وغمرة ، فكانت أليمة الوقع ، قاسية الأثر فى الفريقين ، وأحس بنو قضاعة فيها ما لبنى عبس من الدربة فى الحرب ، والجرأة والمهارة على الطعن والضرب ، وإن أتعبتهم كثرة العدد فى بنى قضاعة ، وشجاعة غمرة ومهارتها فى ضروب القتال ، وبينما كانت الحرب على أشدها ، وشبح الموت يتراءى لكل من الفريقين ، إذ بشيبوب ينادى قائلا : أبشروا يا بنى قضاعة ، فقد أتاكم عنترة بن شداد ، وسيطعمكم بسيفه الموت الزؤام ، ويجعلكم مثلا وعبرة للأيام ، وما إن انتهى من ندائه حتى كان عنترة فى المعركة يخب فيها ويضع ، فشتت شمل الأعداء ، وأسرت غمرة وأبوها ، وانتهت بهزيمة بنى قضاعة هزيمة منكرة .

فرح دريد بعودة عنترة ، وبالنصر العظيم الذى فاز به ، وعجب أن رأى ذا الخمار معه أسيراً ، فسأله كيف خلص من أسره ، وكيف وقع ذو الخمار فى يده ، فقال : أما خلاصى فكان على يد أخى شيبوب ، وأما ذو الخمار فقد كان يبغى قتلى وله معى حديث عجيب .